

• المهارات العليا للدعاة والمصلحين.. عصر جديد وتحديات جديدة

• ما وراء الثورات، جسراً إلى النهضة

• هل نحن بحاجة للسنة النبوية؟

• معالم وإرشادات في دعوة أهل الإلحاد

دعوة

مجلة فكرية دورية

معي أو ضدي!



28

العدد الثامن والعشرون

ربيع الآخر ١٤٤٦هـ - تشرين الأول / أكتوبر ٢٠٢٤م

هذه المجلة

(رَوَاء) مجلة فكرية تُعنى بالإنتاج العلمي والدعوي والتربوي والاجتماعي، وتسعى أن تكون منارة في أرض الشام المباركة، تشع بالعلم والمعرفة من خلال المجالات الآتية:

- الأصالة والانطلاق من ثوابت الدين والأمة، وتعزيزها في النفوس.
- بث القيم الحضارية وروح النهضة في المجتمع.
- تعزيز جانب الائتلاف وجمع الكلمة بين صفوف الأمة.
- إثراء الساحة بمقالات متميزة تلامس الواقع، في قضايا المنهج والتجديد والإصلاح.

ترحب مجلة **رَوَاء** بمقالاتكم العلمية والفكرية
ضمن المحاور الأساسية للمجلة

تأصيل	حضارة وفكر	دعوة	نظرات نقدية	قضايا معاصرة	تزكية	قراءات
مواد تتناول تأصيل المنهج، وتقعيده ووضع ضوابطه وأساسه بصورة بنائية	مواد تتناول قضايا حضارية وفكرية	مواد تتناول فقه وأصول الدعوة، والأساليب والوسائل والتجارب الدعوية	لتصحيح المفاهيم والتصورات	مواد تتناول السياسة الشرعية ومآلات الأمور، وتطبيقات المصالح والمفاسد على القضايا المستجدة	في التربية والتزكية والأخلاق	قراءات في الكتب والرسائل العلمية ونقدها وإظهار محاسنها

ويشترط ألا يزيد حجم المادة المرسلة عن ٣٠٠٠ كلمة، وأن تكون المادة مكتوبة أصالة للمجلة وغير منشورة من قبل، وأن تراعى فيها سياسات النشر في المجلة

ترسل المقالات والمواد إلى البريد الإلكتروني:
rawaa@islamicsham.org

سياسات النشر في المجلة

١. تنشر المجلة المقالات التي تثري محاورها الأساسية.
٢. تلتزم المجلة بسياسة التحرير الهادئة، وتجنب النقد الجارح وما يثير النزاعات والفتن.
٣. لا تنشر المجلة ما يجعلها طرفاً في صراعات دولية أو إقليمية أو محلية.
٤. يُحكّم المقالات الواردة للمجلة متخصصون في موضوعاتها.
٥. أن يكون البحث أصيلاً ومخصصاً للمجلة، ولم يُنشر في أيّ وسيلة نشر إلكترونية أو ورقية، ولم يقدّم إلى أيّ جهة أخرى للنشر.
٦. تنشر المقالات بالأسماء الصحيحة والصريحة لأصحابها.
٧. تلتزم المجلة بإخبار الكاتب بقرارها من النشر أو عدمه خلال شهر من استلام المقال.



مجلة رَوَاء
دورية فكرية تصدر كل شهرين

أسرة التحرير

د. عماد الدين خيتي
رئيس التحرير

أ. محمود درمش
سكرتير التحرير

أ. جهاد خيتي

أ. عبد الملك الصالح

تكتب جميع المراسلات باسم رئيس التحرير، وترسل إلى:
rawaa@islamicsham.org



www.rawaamagazine.com
www.islamicsham.org



كلمة
التحرير



معي أو ضدي!

الإلجاء إلى الاختيار بين أمرين لا ثالث لهما صار سمةً من سمات نقاشات وحوارات هذا العصر، يتكرّر كل حين مهما اختلفت الجغرافيا والتاريخ، تتعدّد الصور والوجوه والأيادي؛ لإحراج الطرف الآخر أو الضغط عليه لاعتناق الفكرة المطروحة بترهيبه مما يُقابلها: أنت مع هذا أم هذا؟ أيّهما تختار؟ موافق أم معارض؟ إن لم تكن كذا فأنت كذا!

وكثيراً ما يمارس في ذلك التضليل وتزييف الوعي، وقديماً قال الخوارج لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه عندما محا لفظه «أمير المؤمنين» من عقد الصلح بينه وبين معاوية رضي الله عنه، قالوا: فإن لم يكن أمير المؤمنين فهو أمير الكافرين! ووصل الحال إلى درجة أن يُعدّ المحايد عند أصحاب كل خيارٍ من الخيارين منتمياً للمعسكر الآخر شاء أم أبى.

وربما بشيءٍ من التفكير وإعمال العقل والنظر يكون الموقف الصحيح طريقاً آخر مختلفاً كلياً في كثير من الحالات، أو يمزج بين حسنات الأول والثاني، أو يستبعد سيئاتهما، وقد يكون عدّة طرقٍ لا طريقاً واحداً.

نُقل عن الإمام مالك - رحمه الله - أنه سأله رجل فقال: إن أبي في السودان ويدعوني، يطلب مني أن أقدم إليه، وأمي تمنعني من ذلك، فقال الإمام مالك رحمه الله: أطع أباك ولا تعص أمك، فكأن الإمام مالكا يرشده أن يبحث عن مخرج لا يحصل منه عقوق أحدهما.

وفي الأمور الفكرية التي تحتدم المعارك حولها يتحتّم على العقلاء التحرك لإيجاد حلول تخرج الناس من قلقهم وحيرتهم في هذه الثنائية القاتلة.

قد يكون الموقف الصحيح طريقًا آخر
مختلفًا عن الخيارين المطروحين كليًا في كثير
من الحالات، أو يمزج بين حسنات الأول
والثاني، أو يستبعد سيئتهما، وقد يكون
عدّة طرقٍ لا طريقًا واحدًا

بين الغلاة والغزاة:

حيثما وُجدت فرجة أمل يتنفس فيها المسلمون الصعداء من
أنظمة الطغاة يظهر الخوارج الغلاة ليفرضوا أنفسهم أوصياءً
حصريين على الدين، ويتعاملون بفوقية مع العاملين الذين
كانت لهم يدٌ طولى في الثورة والدعوة والتحرير والبناء في ذات
الساحات بمبدأ «معي أو ضدي» ويبدأ مسلسل التصفيات في
العاملين الأحرار، باعتبارهم «كفارًا» لأنهم لم ينضموا إليهم.
وقد تكرر هذا في كل من العراق وسوريا وليبيا واليمن
وأفغانستان وغيرها.

ثم ينبري «المجتمع الدولي» لتكوين تحالف لهزيمة الشر
التمثل في هذه الجماعات، ويحشد معه من يستطيع من
المسلمين والكفار، رافعًا شعار «من ليس معنا فهو ضدنا».

وهنا يقع المسلمون في مناطق الغلاة وما حولها في معضلة
اختيار أحد الفريقين، فإذا فرحوا بزوال كابوس الغلاة الذين
يكفرونهم ويقتلون خيارهم اعتبروا منافقين مؤيدين للتدخل
الكافر، وجنودًا وعملاء للدولار، وإذا نددوا بالعدوان الخارجي
على بلاد المسلمين فهم تكفيريون مُتطرّفون!!

والحق: أنّ غالبية المسلمين ليسوا متطرفين ولا غلاة، لا
يقبلون هذا الفكر الشاذ عن عقيدة الأمة، ويرفضون تدخل
الغزاة في شؤونهم ويعرفون أنهم المستهدفون الحقيقيون من

هذه التحركات، يدافعون الغلاة ويرفضون الاستنجاد بالغزاة ودعمهم.

بين الصفوية والصهيونية:

أفاقت الأجيال الحالية على عدوٍّ محتلٍّ غاصبٍ لأرض فلسطين، ومع ضعف إرادة الطبقة السياسية العربية أو عمالتها: اشتدَّ عوده، وترامت أذرعه السياسية والاقتصادية في المنطقة، وعُقدت معه الاتفاقيات الطبيعية -المعلنة وغير المعلنة- حتى صار متحكماً رئيسياً في سياسات المنطقة واقتصاداتها، وأصبح من يعارضه أو يقاومه متطرفاً متهوراً!

وفي ذات الحقبة مكَّن المستعمر الفرنسي للنصيرية في سوريا، ثم قامت الثورة الإيرانية، وجاء قائدها «الخميني» على متن طائرة فرنسية، وتشكلت دولة تحلم بنشر التشيع والهيمنة على مفاصل القوة والنفوذ في المنطقة، ثم ما لبثت في التوسع في المحيط السني، بالأساليب الناعمة والخشنة على حدٍّ سواء، فتمكَّن الرافضة من التحكُّم بـلبنان بدعم إيرانيٍّ نصيريٍّ، ومكَّن الاحتلال الأمريكي وكلاء إيران في العراق، وغض العالم الطرْف عن صعود وكلائهم في اليمن، ثم تعرض أهل السنة في سوريا إلى محرقة إبادة على مرأى من العالم ومسمع، على يد التحالف الرافضي النصيري.

وضمن مشروع تفتيت أهل السنة وإضعافهم قُضي على جميع أشكال مقاومة المحتل الغاصب في لبنان ودول جوار فلسطين، وغض الطرف عن رفع الأحزاب الشيعية شعارَ مقاومة الاحتلال الصهيوني، وشيئاً فشيئاً تشكَّل المشهد -ظاهرياً- في المنطقة على النحو الآتي:

« إمبراطورية إيران ويسير في فلكها نظام الأسد في سوريا، وحكومة وميلشيات في العراق، وحركة ذات نفوذ في اليمن، وتنظيم حزب إيران في لبنان الذي سيطر على مفاصل القوة فيها.

« الكيان الصهيوني وشبكة التحالفات واتفاقيات التطبيع معه، والتي تضم أنظمة سياسية متعددة في المنطقة.

وأصبحت المقاومة الفلسطينية السنية في غزة وغيرها في موقفٍ عصيبٍ بين مشروع إيران وأذرعها التي تستثمر فيها لأهدافٍ خاصّةٍ بها، وبين وكلاء الاستعمار في الدول العربية الذين يديرون ظهورهم للقضية الفلسطينية ويتركونها للفناء، وساد الارتباك الساحة الفكرية مرة أخرى؛ فمن وقف ضد إيران وحلف «المانعة» فيحسبه البعض على الكيان وحلفائه، ومن أيد المقاومة الفلسطينية وناصرها حُسب على إيران وحلفائها!

غيابُ الاختيار، ومحاولة فرض خياراتٍ جاهزةٍ معليةٍ، جزءٌ من مشكلةٍ فكريةٍ ثقافيةٍ أكبر تقوم على أساس النظرة الحديّة للأُمور، وتفسير الأحداث على ضوءها تفسيرًا ثنائيًا لا ثالث فيه: مع أو ضد، عميل أو حليف، ... وهكذا

جذور المشكلة:

هذان المثالان المذكوران وغيرهما، مثل: (الاختيار بين اليمين واليسار السياسي، وبين معسكر الشرق والغرب في وقت سابق، وبين النسوية والذكورية... وغيرها) تشترك فيما بينها بصفةٍ ظاهرة وهي: غيابُ الاختيار، ومحاولة فرض خياراتٍ جاهزةٍ معليةٍ، ومعها التصنيف والتخوين والاتهام، وما يفاقم المشكلة قبولُ كثير من الناس بنخبهم لهذا التأطير والفرض، حتى أصبح ذلك مسلّمًا به يصعب الانفكاك عنه أو التفكير برفضه،

حتى صارت جملة «خذه جملةً أو دعه جملةً» هي الشعار المفضل لهؤلاء^(١).

وهي جزءٌ من مشكلةٍ فكريةٍ ثقافيةٍ أكبر تقوم على أساس النظرة الحدية للأمور، وتفسير الأحداث على ضوءها تفسيراً ثنائياً لا ثالث فيه: مع أو ضد، عميل أو حليف، وهكذا.

بينما تحتل كثير من الأمور المطروحة مراتب عديدة وخيارات كثيرة للحلول أو الأحكام^(٢)، وقد يكون الحل بأجزاء من هذا وذاك، أو من كليهما، أو خارجهما.

فما العمل؟!!

لا شك أنّ الحل النهائي لمثل هذه المشكلات هو قيام الأمة الإسلامية بقوّتها وتماسكها وقيادتها الرشيدة، وهذا يبدو بعيد المنال في الوقت الحالي، ويحتاج لنفسٍ طويلٍ وبناءٍ جادٍّ وصبرٍ وثباتٍ كبيرين وفوق ذلك توفيقاً وفتحاً من الله.

لكن ثمة أمورٌ من شأنها أن تخفف من آثار هذه المعضلات التي يواجهها أبناء الإسلام وتوقعهم في حيرةٍ أو فرقةٍ وتناحر في بعض الأحيان، وهذه الأمور يمكن إجمالها فيما يأتي:

١. التشاور المستمر بين الأعيان والرموز:

والمقصود بهم: من يُعرف صدقهم من العلماء والمفكرين ورواد الدعوة والإصلاح والبناء، وخصوصاً أصحاب الفكر

(١) لطرح الأسئلة سلطة على أطراف الحوار، تحدث عنها الدكتور إبراهيم السكران، في محاضرة «سلطة طرح الأسئلة» على منصة Youtube، يناقش فيها الدور الحاسم للأسئلة في تشكيل الفكر والتأثير على المجتمعات. حيث إنّ الأسئلة ليست مجرد وسيلة للبحث عن إجابات، بل تحمل في طياتها قدرة على فتح آفاق جديدة، وتغيير النقاشات وتوجيه الانتباه إلى قضايا مهمة. ويؤكد السكران في المحاضرة أنه ثمة مسؤولية في طريقة طرح الأسئلة، وأنها قد تكون أداة للبناء أو للتهدم.

(٢) هناك عدة نظريات فكرية تحاول حل هذه المعضلة أبرزها: نظرية «الطريق الثالث»، وهو مصطلح يشير إلى اتجاه آخر مختلف عن الاتجاهين السائدين في قضية معينة. وله تطبيقات سياسية واقتصادية واجتماعية عديدة.

التوافقي منهم، فتعقد المشاورات بينهم كلما استجدَّ جديد، أو ادلهمَّ خطب. وهدف التشاور هو: اتخاذ الموقف الصحيح أو الأقرب للصحة من موقفٍ أو حالةٍ أو نازلةٍ مع الحصول على آراء أهل الخبرة والنظر، وجعل المواقف قريبةً من بعضها قدر الإمكان إن لم تكن موحّدة.

ولا بدَّ لهذه المشاورات أن تكون صريحةً جريئةً لا تحابي ولا تجامل، وأن تراعى فيها الأمانة الملقاة على أعناق القادرين، والنصح الذي كان الصحابة رضي الله عنهم يبايعون عليه النبي صلى الله عليه وسلم.

ولا يلزم أن تكون هذه المشاورات علنيةً أو في مكان واحد، بل يكفي تطبيعُ ممارستها بين الكيانات والمؤسسات والشخصيات والأحزاب والجاليات، ومع التجربة والدربة والممارسة يمكن أن تُوسَّع الاستشارات، وتوضع لها آلياتٌ تيسرها وتزيل العوائق أمام حصولها في الوقت المناسب، وكلما كان التشاور أصدق كانت نتائجه أقربَ للحق بإذن الله تعالى.

ومما تشمله المشاورات: تحديد الموقف من قضية من القضايا، وتقريب وجهات النظر بين موقفين معتبرين، والعملُ على إيصال النصح إلى جماعةٍ صادقةٍ فيما أخطأت به، وتحديدُ أهون الضررين وأخف الشرّين عند الاضطرار لاختيار أحدهما، وكيفية التعاطي مع هذا الخيار.

لا بدَّ أن يتشاور العلماء والمفكرون ورواد الدعوة والإصلاح والبناء مشاورات صريحةً جريئةً لا تحابي ولا تجامل كلما استجدَّ جديد، أو ادلهمَّ خطب، بهدف اتخاذ الموقف الصحيح أو الأقرب للصحة، أو جعل المواقف قريبةً من بعضها قدر الإمكان إن لم تكن موحّدة

٢. بيان الحق بوضوح تام:

وهذا يعني بث الوعي الصحيح بين أبناء الأمة بحقيقة الأعداء دون مداراة أو تلبيس، وبحقيقة الأفكار دون تجميل أو تزيين أو تشويه، والتنازل عن حظ النفس والجماعة، والتخلص من ضغوط القرار والمواقف المتخذة في وقت من الأوقات.

وإذا اضطر البعض واجتهد للاختيار بين أحد الموقفين - من باب ارتكاب أخف المفسدتين لدفع أعظمهما ضرراً - فلا بدّ من بيان أن ما ارتكب مفسدة، وأنه ليس فضيلةً في نفسه، وأن ارتكابه حصل لدفع المفسدة الأخرى التي هي أعظم منها، فإن عجز عن قول الحق فلا ينبغي له أن يقول الباطل الذي لا خلاف عليه؛ ومما اشتهر على السنة أهل العلم: «فمن لم يستطع قول الحق فلا ينبغي له أن يصفق للباطل»^(١)؛ وذلك أنّ قول الباطل بجانب مخالف للشرع، ثم إنّ فيه فتنة للناس بتزيين الباطل لهم ودعوتهم إليه.

عند الاضطرار إلى الاختيار بين أحد الموقفين - من باب ارتكاب أخف المفسدتين لدفع أعظمهما ضرراً - فلا بدّ من بيان أن ما ارتكب مفسدة، وأنه ليس فضيلةً في نفسه، وأن ارتكابه حصل لدفع المفسدة الأخرى التي هي أعظم منها

٣. العمل على إيجاد كتلة الموقف الثالث:

إذا كانت سمة هذا العصر هي حصر الناس بين خيارين كلاهما شر، فواجب أهل القدرة والرأي: الاجتماع والتعاون على إيجاد كتلة للموقف الثالث، بحيث يكون هذا الموقف وهذه

(١) تنسب هذه العبارة للشيخ الشعراوي رحمه الله.

الكتلة ملاذًا لجميع الرافضين للخيارين، وعددهم كبيرٌ بلا شك، لكن لا بدّ من كتلةٍ ينحازون إليها، ولو كان موقفًا إعلاميًا أو شعاراتٍ يُردُّدها الناس.

ومن التجارب التي يمكن ذكرها هنا: حركة عدم الانحياز التي قامت نتيجةً مباشرةً للحرب الباردة التي تصاعدت بين المعسكر الغربي (الولايات المتحدة الأمريكية وحلف الناتو) وبين المعسكر الشرقي (الاتحاد السوفيتي وحلف وارسو) مع نهاية الحرب العالمية الثانية وتدمير دول المحور^(١)، وكان هدف الحركة هو الابتعاد عن سياسات الحرب الباردة، وتجنب الانضمام لأحد المعسكرين.

ومثل هذه الفكرة قد تكون حلاً بعيد المدى للجاليات المسلمة في الغرب، بحيث يعملون على تأسيس كيانات سياسية تجمعهم وتستقطب جميع الرافضين لسياسات اليمين واليسار معاً، ومع الوقت ستتمو هذه الكيانات وتكبر ويكون لها تأثيرٌ ونفوذٌ يُحسب حسابه.

واجب أهل القدرة والرأي: الاجتماع والتعاون على إيجاد كتلةٍ للموقف الثالث، بحيث يكون هذا الموقف وهذه الكتلة ملاذًا لجميع الرافضين للخيارين، ولو كان موقفًا إعلاميًا أو شعاراتٍ يُردُّدها الناس

٤. التناصح والتراحم بين أبناء الأمة:

فأهل السنة تجمعهم وحدة المنهج، والأخوة في الدين، والمصير المشترك، وهم أحق الناس بتمثل أحكام الإسلام وأخلاقه في التعامل وخاصةً عند الاختلاف وتباين المواقف، يتكاملون

(١) دول المحور: ألمانيا وإيطاليا واليابان.

فيما بينهم، وَيُسَدُّ بعضهم بعضًا، وينصح بعضهم بعضًا، فـ (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا)^(١)، و(المؤمن مرآة المؤمن)^(٢).

ولا يستهين المؤمن ببذل النصيحة بالحكمة والكلمة الطيبة، ولا يتكبر الآخر عن قبولها والاستماع إليها.

ولا بد في سبيل جمع الكلمة ووحدة الصف وإغلاق الأبواب على شياطين الإنس والجن، من التواضع والتسامح، والتعالي عن حظوظ النفس والمكاسب الفردية، وتقديم الصالح العام على المصالح الحزبية أو الفردية، حتى لو كان الطرف الآخر مخطئًا، فـ (خيرهما الذي يبدأ بالسلام)^(٣).

قد يكون الوصول للحلول المثالية في كثير القضايا مستحيلًا في زمن من الأزمنة أو بلد من البلدان أو ظرف من الظروف، لكن لا أقل من أن يعمل أهل الفكر والنظر على إيجاد الحلول وإرشاد الناس لما يتخذونه من مواقف، ولو كان اختيار أخف الضررين وأهون الشرين

وختامًا

يتلو المسلم في كل ركعة من صلاته قوله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ لتأكيد استقلاليته عن المناهج الباطلة، ولو كانت ذات أصل صحيح، ومع استقلالية المسلم في موقفه عن الباطل لا

(١) أخرجه البخاري (٤٨١) ومسلم (٢٥٨٥).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٩١٨).

(٣) أخرجه البخاري (٦٠٧٧) ومسلم (٢٥٦٠).

بدّ أن يقتفى أثر جماعة المسلمين ويتّحد معهم ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ وهذا منهجٌ دقيقٌ لا بد أن يكون لبنة من لبنات تفكيره.

ومسؤولية النخب ليست كمسؤولية غيرهم، وكلامهم ليس ككلام غيرهم؛ وعامة الناس تبع لهم، متأثرون بهم، والفتن حينما تقع تحتاج إلى فهم عميق، وميزان دقيق، يملكه أولو العلم والنظر والبصيرة، ويستشرفون المخاطر والحلول، ويئدون الفتن في مهدها، ويجمعون الصفوف بسعة قلوبهم وعظم نفوسهم، وفهمهم العميق للدين.

قد يكون الوصول للحلول المثالية في كثير من القضايا مستحيلًا في زمن من الأزمنة أو بلد من البلدان أو ظرف من الظروف، لكن لا أقلّ من أن يعمل أهل الفكر والنظر على إيجاد الحلول وإرشاد الناس لما يتخذونه من مواقف، ولو كان اختيار أخف الضررين وأهون الشرّين.



دعوة



المهارات العليا للدعاة والمصلحين.. عصر جديد وتحديات جديدة

د. وائل الشيخ أمين

مؤسس ومدير أكاديمية عين

تتوالى المتغيرات والمستجدات في عصرنا الذي نعيشه بوتيرة غير مسبوقة، كما تتباعد الفجوة بين الأجيال بصورة تصعب التواصل فيما بينها، وفي هذه الظروف لا يحسن بالمصلحين إلا البحث في تغيير أدواتهم وتطويرها بما يعينهم على مواكبة المستجدات، وبما يجعل خطابهم محبوباً لمختلف الفئات والأجيال، وهذا التطوير يتطلب كثيراً من العمل والجهد، ومن ذلك اكتساب المهارات العليا وإتقانها.

تحديات استثنائية:

من الأسئلة الشاغلة باستمرار لمن يحمل هم النهوض بالأمة: **ماذا علينا أن نفعل في هذه المرحلة؟**

وكلما زادت التحديات زادت صعوبة هذا السؤال، وفي عصرنا الذي نعيش: نرى أن المستجدات الكبيرة التي تحصل من حولنا متسارعة بشكل مخيف، بل لا نبالغ حين نقول: إن تسارعها يحول بيننا وبين فهمها وفهم آثارها بشكل عميق.

من هذه المستجدات مثلاً: التغيرات السياسية من حولنا، فلما تنته بعد مرحلة الثورات العربية حتى وقعت حرب في أوروبا بين روسيا وأوكرانيا، ولما تنته هذه الحرب بعد حتى انطلقت معركة طوفان الأقصى، ومن بعدها الحرب على غزة التي ما زلنا نعيش أحداثها.

وإننا ما نزال غير قادرين على الإحاطة بفهم آثار وتداعيات هذه الحروب والحوادث الهائلة.

من تداعياتها مثلاً: موجات هجرة غير مسبوقة، وهذه الهجرة أدت إلى تشتت العائلات، فلم يعد غريباً أن ترى عائلة متوزعة على ست أو سبع دول، ولم يعد غريباً أن يولد الطفل ويبلغ ١٠ سنوات من عمره، وهو لم يقابل جدّه أو أعمامه أو أخواله، بل ربما لا يعرف معاني هذه الكلمات جيداً لأنه لا يستعملها أصلاً.

وهذه الهجرات أدت أيضاً إلى الاحتكاك مع ثقافاتٍ مختلفةٍ عن ثقافتنا، وما يصحب هذا من ظواهرٍ عدةٍ كالعنصرية وتدايعياتها المختلفة، والانبهار والذوبان في الآخر وعواقبها الوخيمة من اندثار الهوية وفقدان اللغة والانحراف عن الدين أو ربما الإلحاد.

ومن المستجدات الأخرى المهمة اليوم: ظهور وانتشار وسائل التواصل الاجتماعي، ولا يخطئ من يسمي عصرنا بعصر هذه الوسائل، حيث إن آثار هذه الوسائل حتى الآن وحسب الدراسات كبيرة جداً على صعيد المجتمع والحكومات والأعمال، بل والأهم من ذلك كله على صعيد الفرد؛ حيث خرجت دراسات تثبت حدوث تغيرات تشريحية وفيزيولوجية في الدماغ بسبب هذه الوسائل منها ما كتبه سوزان جرينفيلد في كتابها «تغير العقل»، أما إدمان هذه المواقع فصار وباءً عالمياً لم يعد مُستغرباً.

وأزعم أن هنالك الكثير من الآثار لهذه الوسائل لم تُعرف بعد، وأن الزمن سيكشفها لنا تدريجياً.

فالיום يبدأ جيلٌ جديد بالظهور لم يحيَ طفولة الأجيال السابقة، فتشكلت شخصياتهم وتوجهاتهم وطرق تفكيرهم بشكل مختلف، حتى إنَّ الفجوة بين هذا الجيل المسمى بجيل زد وبين الأجيال السابقة تكبر ولغة التواصل تزداد صعوبة^(١).

(١) جيل Z، المعروف أيضاً باسم «الجيل الرقمي» أو «الجيل الصامت»، يشير إلى الأشخاص الذين ولدوا في الفترة ما بين منتصف التسعينيات إلى أوائل العقد الثاني من القرن الحادي والعشرين. يتصف هذا الجيل بكونه أول جيل نشأ في عصر التكنولوجيا الرقمية والإنترنت منذ الولادة، مما جعلهم أكثر اتصالاً بالإنترنت وأجهزة التكنولوجيا من أي جيل سابق. غالباً ما يتميزون بالاعتماد الكبير على التكنولوجيا، التواصل عبر وسائل التواصل الاجتماعي، والاهتمام بالقضايا الاجتماعية والسياسية. Twenge, Jean M. *iGen: Why Today's Super-Connected Kids Are Growing Up Less Rebellious, More Tolerant, Less Happy--and Completely Unprepared for Adulthood*. Simon & Schuster, ٢٠١٧.

وهناك مستجداتٌ أخرى خطيرةٌ يطول الحديث فيها ولا يتسع المقام لها، كإدمان المواقع الإباحية، ونشر أيديولوجيا الشذوذ الجنسي بشكل مخطط له وعن طريق مجموعات ضغط كبيرة، ولا يخفى على عاقل الآثار الكارثية الناجمة عن ذلك.

ظهور شبكات التواصل الاجتماعي
أثر بشكل كبير جدًا على صعيد المجتمع
والحكومات والأعمال، بل على مستوى الفرد
وتفكيره وسلوكه، وتزداد الخطورة مع نشوء
جيل جديد في ظل هذه المستجدات، حتى إن
الفجوة بينه وبين الأجيال السابقة تكبر ولغة
التواصل تزداد صعوبة

أين المشكلة؟

لا أريد أن أظهر من خلال عرضي السابق بمظهر المتشائم، بل أريد فقط أن أقول: إننا أمام تحديات هائلة استثنائية، والسؤال الأهم هنا هو:

ماذا أعددنا لها!؟

ما هي التغييرات الإيجابية التي قام بها الدعاة والمصلحون لمواجهة هذه التحديات؟

هل تطور الأداء بما يتناسب مع هذه التحديات؟

أم أننا نرى أن العمل الدعوي والإصلاحي لا يزال تقليدياً في فكره وخطابه!

هل يكفي أن المحاضرين صاروا يستعملون الباوربوينت بدل الأوراق المكتوبة، وأنهم قد أنشؤوا قنوات على منصة يوتيوب

وغيرها، وأنهم صاروا يعقدون مؤتمرات وندوات يجتمعون فيها ويحكون فيها تجاربهم؟

أنا لا أستهين بكل ما سبق، لكن أؤكد على أن التحديات أكبر بكثير من تطور العمل الدعوي والإصلاحي.

ولئن تحدثت عن التغييرات والتحديات التي خلقتها هذه المستجدات فلا يجوز أن أغفل الفرص التي أتاحتها وهي كثيرة اليوم، فوسائل التواصل الاجتماعي أتاحت للجميع تقريباً أن يكون لديه منبر ينشر من خلاله أفكاره، وعلى المصلحين والدعاة أن يستثمروا في ذلك، وكذلك ثورة الذكاء الصناعي اليوم زادت كثيراً من تمكين الإنسان وجعلته قادراً أكثر من أي وقت سابق على الإنجاز وعلى التعلم الذاتي، وهذه فرصة عظيمة يفوز بها السباقون إليها.

فالكثير من تطبيقات الذكاء الصناعي يمكن توظيفها اليوم في التعلم الذاتي، منها مثلاً: تشات جي بي تي الذي يمكن أن يساعد من خلال الحوار الموجه بشكل صحيح معه إلى اكتساب وتطوير العديد من المهارات كتعلم اللغة، وكتابة المحتوى، ومهارات التفكير وغيرها.

من أهم الواجبات اليوم: العمل على تطوير الدعاة والمصلحين؛ فالنهضة تبدأ بالإنسان، وكلما زاد تطوير هذا الإنسان اختصرنا المسافات من وقت ومال وجهدٍ وتضحيات، فليست الموارد التي تنقصنا، ولا الأموال، ولا الاستعداد للتضحية والعمل، بل أن يكون العاملون لنهضة الأمة أكثر جدارةً ووعياً

ماذا نحتاج لمواجهة هذه التحديات؟

لا أزعم أنني أملك الجواب على هذا السؤال الكبير، لكنني سأشير إلى جانب مهم منه، وأعتقد أن هذا الجانب ما لم يتم العمل عليه، فكل عمل آخر لا جدوى كبيرة منه.

وهذا الجانب هو العمل على تطوير الدعاة والمصلحين؛ فالنهضة تبدأ بالإنسان وكلما زاد تطوير هذا الإنسان اختصرنا المسافات من وقت ومال وجهدٍ وتضحيات، فليست الموارد التي تنقصنا، ولا الأموال، ولا الاستعداد للتضحية والعمل، بل أن يكون العاملون لنهضة الأمة أكثر جدارةً ووعياً.

وتطوير الدعاة والمصلحين يمكن العمل عليه من خلال جوانب عديدة، إلا أنني سأحدث عن جانب واحد فقط منها، وهو المهارات العليا.

وأعتقد أننا مقصرون جداً في الاعتناء بهذا الجانب على الرغم من أهميته ومركزيته، فالجانب الشرعي يتم العمل عليه كثيراً، وكذلك الجانب التربوي، والتوعية السياسية والتاريخية، والمهارات التقنية، وكل ما سبق مهم، إلا أنه لا يمكن استثماره بشكل صحيح ممن لا يمتلك المهارات العليا.

ما هي المهارات العليا؟

قبل الحديث عن المهارات العليا، من المهم أن نحدد معنى المهارة عموماً وهي بالتعريف: القدرة المكتسبة على أداء عملٍ معين بكفاءةٍ ودقةٍ.

قد تكون هذه المهارة حركيةً مثل المهارات الرياضية، وقد تكون ذهنيةً مثل مهارة لعب الشطرنج. وقد تكون تقنيةً مثل مهارة العمل على برنامج (إكسل) وقد تكون تواصلية مثل مهارة الإلقاء.

ومن التصنيفات المهمة للمهارات تقسيمها إلى: مهارات عليا، ومهارات صلبة.

فأما المهارات الصلبة فهي: المهارات التي يمكن قياسها وتعلمها من خلال التعليم الرسمي أو التدريب العملي.

من أمثلة المهارات الصلبة: البرمجة، التصوير، التحليل المالي، قيادة السيارة، الطب... إلخ.

ومن خصائص المهارات الصلبة أنها:

« قابلة للقياس: يمكن تقييمها من خلال الاختبارات وفق معايير واضحة.

« التعليم الرسمي: غالبًا تكتسب من خلال الدراسة الأكاديمية أو التدريب المتخصص.

« تخصصية: ترتبط بمجالات ومهن محددة.

وأما المهارات العليا فهي: المهارات الشمولية التي تدعم وتعزز المهارات الصلبة، وهي مهارات عقلية تجريدية (متعلقة بالتفكير بالمقام الأول).

من أمثلة المهارات العليا: التفكير الناقد، الإبداع، الإقناع والتأثير في الجماهير، القيادة، التفكير الاستراتيجي، التعلم الذاتي، إدارة الوقت.

ومن خصائص المهارات العليا أنها:

« غير قابلة للقياس بسهولة.

« تعميمية: يمكن الاستفادة منها في مجالات عديدة.

« تعتمد على العقلية: لا يكفي التعليم الأكاديمي أو التدريب الرسمي لتعلمها، بل تعتمد على التفاعل الشخصي المستمر معها في الحياة.

من ميزات المهارات العليا أنها عابرةً للزمن، لا تتراجع أهميتها مهما تغيرت الظروف، فطالما أنَّ البشر موجودون على هذه الأرض فهم بحاجةٍ إلى الإقناع، وإلى الإبداع، وإلى مهارات النقد والتفكير وحل المشكلات والتعامل مع رسائل الآخرين، ولن يأتي يوم لا تحتاج فيه إلى هذه المهارات

ما الذي يميز المهارات العليا؟

سأذكر ثلاثة أمور تجعل المهارات العليا أكثر أهمية من بقية المهارات:

١. عابرة للزمن:

مهارة الفروسية كانت من أهم المهارات الحياتية في عصور سابقة، أمّا اليوم فلم تعد بهذه المحورية، وكذلك جميع المهارات الصلبة تكون مرتبطة بسياق معين سرعان ما يتغير فتقل أهميتها، ومن الأمثلة الغريبة على ذلك: مهارة البرمجة حيث كانت حتى فترة قريبة من أهم المهارات العصرية، أما اليوم بعد ثورة الذكاء الصناعي فقلت أهميتها، وهذه الأهمية تتناقص مع مرور الوقت، لا شك أن العالم سيبقى بحاجة للمبرمجين لكن ليس كما كان، حتى إن جنسنغ هوانغ الرئيس التنفيذي لشركة نيفيديا وهي إحدى الشركات العالمية الكبرى في مجال التقنية قال في أحد لقاءاته مؤخرًا:

«أريد أن أقول شيئًا وسيبدو عكس ما يشعر به الناس تمامًا، ربما تتذكر على مدى ١٠ سنوات أو ١٥ سنة الماضية كان الجميع يخبرك أنه من الضروري أن يتعلم أطفالك علوم الكمبيوتر، يجب على الجميع تعلم كيفية البرمجة، وفي الواقع يكاد يكون العكس تمامًا هو الصحيح، إن مهمتنا هي إنشاء

تقنيات حاسوبية بحيث لا يضطر أحد إلى برمجتها، فلغة البرمجة هي لغة بشرية، أصبح بإمكان كل شخص في العالم أن يكون مبرمجاً!».

أمّا المهارات العليا فهي عابرة للزمن لا تقل أهميتها مهما تغيرت الظروف، فطالما أن البشر موجودون على هذه الأرض فهم بحاجة إلى الإقناع، وإلى الإبداع، وإلى مهارات التفكير.

لن يأتي يوم لا تحتاج إلى التفكير الناقد لحل مشكلاتك والتعامل مع رسائل الآخرين، ولن يأتي يوم لا تحتاج فيه إلى أن تكون مقنعاً لأبنائك ولن تريد التأثير فيهم.

٢. انعكاسها على بقية المهارات:

ما الذي يميز بين طبيب وآخر في سوق العمل؟

هل هو درجة إتقانه وتمكنه العلمي الأكاديمي!

هذا لا يكفي، بل يتوقف نجاح الطبيب على امتلاكه للمهارات العليا، كجودة التواصل مع مرضاه، والذكاء العاطفي، والإقناع، وكذلك تفكيره الناقد الذي يعينه على التشخيص بجودة أكبر.

ما الذي يميز مسوّقاً رقمياً عن آخر؟

هل معرفته بأهم الأدوات التقنية التي تعين على فهم الجمهور واستهدافه وتصميم الحملات التسويقية!

هذا لا يكفي، بل يزداد نجاحه كلما امتلك المهارات العليا كالإبداع والإقناع والتأثير في الجماهير لأنها ستساعد صاحبها على تطوير مهاراته الصلبة واستخدامها بأفضل طريقة.

٣. عابرة للمجالات:

من يمتلك مهارة التصوير سيستفيد منها في التصوير، ومهارة قيادة السيارة فائدتها محدودة بها، وكذلك الحال مع بقية المهارات الصلبة، أما المهارات العليا فهي عابرة للمجالات.

لنأخذ مثلاً: مهارة الإقناع، فكّر ما هي المجالات التي ستتحسن فيها لو طوّرت مهارة الإقناع لديك؟

سيفيدك ذلك في تربية أبنائك، في التعامل مع عملائك، في التسويق لنفسك ولأفكارك، وفي الدعوة والتدريب والتعليم، وفي علاقتك مع زوجك، وفي التفاوض، وفي البيع، وفي الحوارات اليومية مما يزيد من مكانتك وثقتك بنفسك.

ربما علمت الآن أنني لم أكن أبالغ.

أعد السؤال ذاته على مهارات عليا أخرى كالتفكير الناقد والإبداعي وحل المشكلات، كيف يفيدك التطور فيها وينعكس على مجالات كثيرة.

من المهم أيضاً أن ألفت انتباهك لظاهرة بشرية، وهي أن الإنسان لا يستطيع أن يتنبأ بمجال اهتمامه وشغفه بعد بضع سنوات، فقد يسحرك مجال التصوير وتتعلمه وتبدأ بالعمل فيه، ثم بعد فترة يزوي هذا الشغف ويصبح المجال مملاً لك، فتتطلع لتغييره، وعندما تفعل ذلك فلن تفيدك هذه المهارة الصلبة (التصوير) في المجال الذي انتقلت إليه، أما مهاراتك العليا فسوف تصحبك إلى أي مجال تذهب إليه.

وهذه المهارات العليا على الرغم من أهميتها إلا أن أنظمة التعليم الحالية تتجاهلها بشكل تام، فلم تُزرع في قلوب وعقول النشء والأجيال المتتابة، فأصبح بناؤها وصقلها على عاتق أولياء الأمور والمجتمع المحيط.

على الرغم من أهمية المهارات العليا إلا أنَّ
أنظمة التعليم الحالية تتجاهلها بشكل تام،
فلم تُزرع في قلوب وعقول النشء والأجيال
المتتابة، فأصبح بناؤها وصقلها على عاتق
أولياء الأمور والمجتمع

أمثلة على المهارات العليا وضرورتها للدعاة والمصلحين:

« التفكير الناقد:

بداية نهضة أي أمة تكون بالنقد!

لا يمكن لأمة أن تنهض وعقول أبنائها تسيطر عليها أفكار
ومفاهيم خاطئة، انظر إلى الإسلام كيف بدأ بمحاربة التصورات
الجاهلية الفاسدة، منها مثلاً:

« الاعتقاد بأن الأصنام تضر وتنفع.

« الاعتقاد بأن البنات عبء على كاهل الأب ومن حلول
ذلك الوأد.

« عدم الاهتمام بالعلم والصناعة.

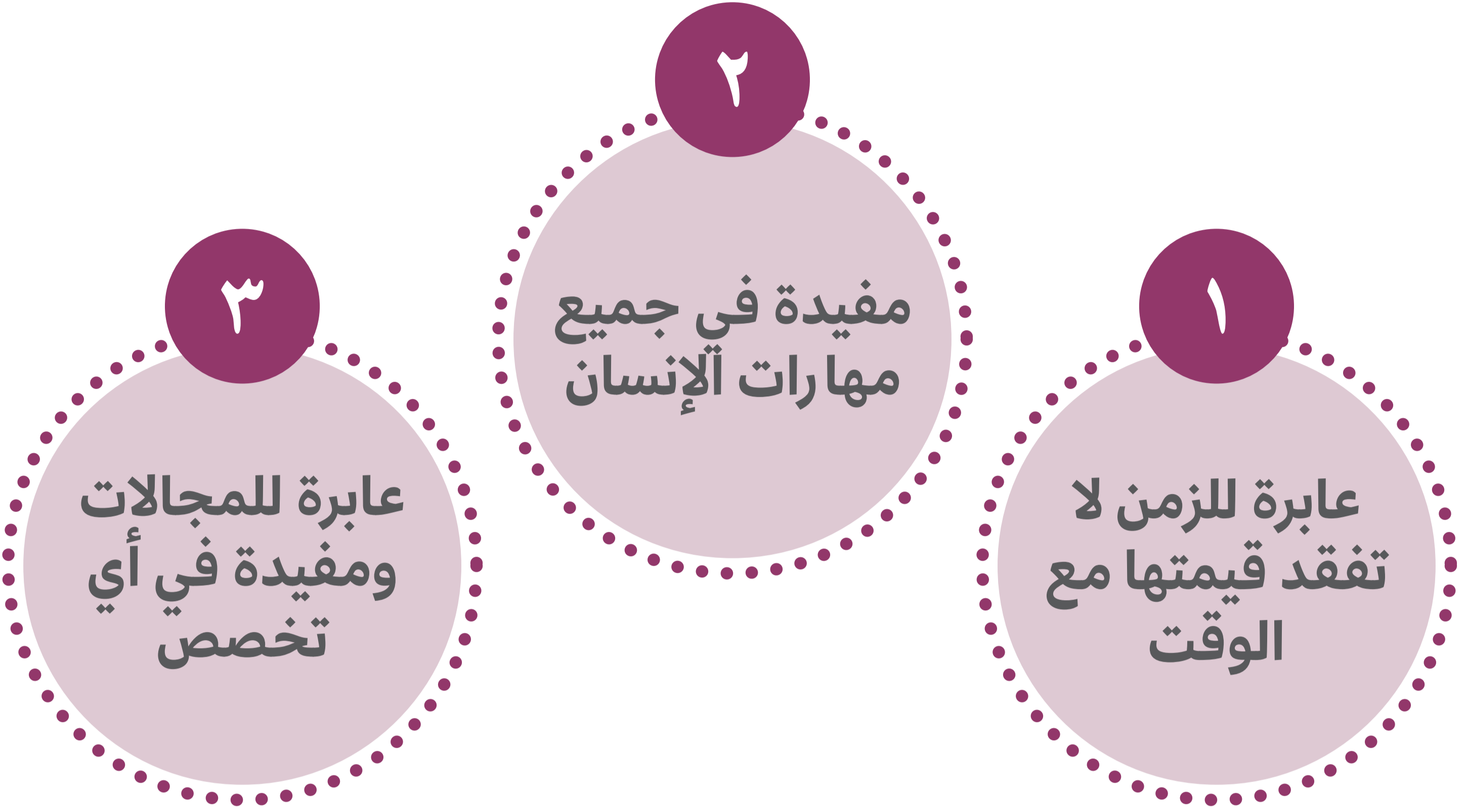
وغير ذلك من تصورات فاسدة، كيف يمكن لحضارة أن
تقوم على عقول تسكنها هذه التصورات!؟

وكذلك الحضارة الغربية بدأت بمحاربة تصورات وقيم
فاسدة، منها مثلاً:

إهمال قيمة العقل وازدراء العلم وحصره فقط في رجال
الدين حتى كان لسان حالهم: (لا علم إلا في الكتاب المقدس)
ولا يفهم الكتاب المقدس إلا رجال الدين!

وغير ذلك من تصورات فاسدة.

أهم مميزات المهارات العليا



هل كان يمكن للغرب أن يحقق نهضته - رغم اختلافنا الكبير مع ما وصل إليه - لو بقيت هذه التصورات القاتلة قابضة في عقولهم!

وكذلك الحال مع كل أمة تريد أن تنهض من واقع سيء إلى مستقبل أفضل، لا بد أن تبدأ بعملية نقد للواقع، وتحديد لأهم الأفكار الخاطئة المنتشرة فيها ثم العمل على معالجتها.

كما أننا لن نستفيد من الفرص الكبيرة في عصرنا هذا ما لم نمتلك عقولاً ناقدة، فنحن اليوم نشهد انفجاراً معلوماتياً غير مسبوق!

لم يعد التحدي فيه هو الوصول إلى المعلومة ولا حفظها، ذاك زمان مضى، أما اليوم فالتحدي هو في معرفة كيفية التعامل مع هذه المعلومة.

التفكير الناقد هو ببساطة أن تفهم بشكل أفضل كل ما يعرض على عقلك سواء مما تقرأ أو تسمع أو تفكر، ثم أن تحكم عليه حكماً أقرب إلى الصواب.

أسئلة اليوم ليست كأسئلة الأمس، وما كان يقنع الشباب قبل عشرين سنة لم يعد يقنع الشباب اليوم، وما كان ثابتاً بديهاً بالأمس صار اليوم وجهة نظر، والتعاطي مع الشباب بأسلوب التلقين والتسليم لم يعد يجدي نفعاً، ولذلك فإن الداعية أو المصلح عليه أن يطور مهارة التفكير الناقد لديه، وإلا فسوف يقع في مواقف في الحوارات مع الشباب لا يحسد عليها.

كما أن معظم الشبهات التي تنتشر اليوم لا يحتاج تفنيدها إلى علم شرعي كبير بقدر ما يحتاج إلى عقلية نقدية قوية تكشف المغالطات الموجودة فيها.

امتلاك هذه المهارة عند الدعاة والمصلحين تجعلهم أقوى في التعامل مع الواقع ومشكلاته، وأقوى في التعامل مع الشباب ومحاورتهم.

معظم الشبهات التي تنتشر اليوم لا يحتاج تفنيدها إلى علم شرعي كبير بقدر ما يحتاج إلى عقلية نقدية قوية تكشف المغالطات الموجودة فيها، وامتلاك هذه المهارة عند الدعاة والمصلحين تجعلهم أقوى في التعامل مع الواقع ومشكلاته، وأقوى في التعامل مع الشباب ومحاورتهم

« الإقناع والتأثير في الجماهير:

وهما مهارتان لكنني سأحدث عنهما في سياق واحد لتداخلهما الشديد، وبغية الاختصار.

فالإقناع هو القدرة على التأثير على قناعات الآخرين وأفكارهم وسلوكاتهم وتوجهاتهم.

أي أن الإقناع هو لب الدعوة والإصلاح، فكيف يزهد الدعاة والمصلحون في تطوير مهارتهم فيه!

والأبحاث والدراسات العلمية في موضوع الإقناع اليوم زادت بشكل هائل، والكتب الممتازة فيه كثيرة جدًا، ومع ذلك نرى أن الذي يغلب على الدعاة والمصلحين أنهم يعتمدون على قدراتهم الفطرية وما اكتسبوه من تجاربهم الشخصية في إقناع ودعوة الناس دون صقل أو تطوير لها!

على من يريد الإصلاح أن يولي مهارة الإقناع والتأثير أهمية محورية، وأن يقرأ الكتب ويحضر التدريبات ويجهد نفسه في الممارسة حتى يزيد من قدراته، وإلا فلا يغضب عندما يرى التافهين يتصدرون ويؤثرون في الشباب بينما يتحاور المصلحون فيما بينهم بلغتهم العالية وعلمهم الرصين

ألا ترى أن البعض يمتلك علمًا ضئيلاً وربما فكرًا منحرفًا لكنه يمتلك قدرات كبيرة في الإقناع، فيذيع صيته ويزيد أثره، وعلى الطرف الآخر ترى الكثير من أهل الإصلاح والعلم ضعيفين في الإقناع رغم امتلاكهم علمًا غزيرًا وفكرًا نيرًا.

ما فائدة العلم والفكر لو لم يستطع المصلح أن يوصله إلى غيره بفعالية ومهارة؟! لن يعدو أن يكون كتابًا على رف مكتبة.

على من يريد الإصلاح أن يولي هذه المهارة أهمية محورية، وأن يقرأ الكتب ويحضر التدريبات ويجهد نفسه في الممارسة حتى يزيد من قدراته، وإلا فلا يغضب عندما يرى أن التافهين

يتصدرون ويؤثرون في الشباب بينما يتحاور المصلحون فيما بينهم بلغتهم العالية وعلمهم الرصين.

والإقناع قد يكون لفردٍ أو لجمهور، ولكل حالة منهما خطاب مختلف عن الآخر، أي أنك لو أردت أن تقنع شخصًا بفكرةٍ ما، وأردت أن تقنع جمهورًا بنفس الفكرة، فإن أسلوب العرض يجب أن يكون مختلفًا، هل يفعل دعائنا هذا!

لو أراد داعية أن يقنع الناس بأهمية الصلاة فهل يكون كلامه مختلفًا باختلاف المخاطب فردًا كان أو جمهورًا.

لقد كان رسول الله ﷺ يفعل ذلك، والأمثلة في هذا من السيرة ليست قليلة، منها مثلاً: قصة المرأة المخزومية التي سرقت، فقال الناس: من يكلم فيها رسول الله ﷺ حتى لا يقيم عليها الحد؟ فاختاروا لذلك أسامة بن زيد، فكلمه أسامة فقال له النبي ﷺ: (أتشفع في حد من حدود الله!). ثم قام النبي ﷺ فخطب في الناس: (إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وإيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها)^(١).

الموقف ذاته وهو طلب الشفاعة في الحد، والرسالة ذاتها: لا شفاعة في الحدود، لكن انظر إلى الفرق الكبير بين الرسالة عندما قالها النبي ﷺ لأسامة بن زيد، وعندما قالها لجمهور من الناس خطب بهم!

هذا ما على الدعاة والمصلحين أن يعرفوه، أن نفسية الجمهور تختلف عن نفسية الفرد، وأن وسائل التأثير مختلفة، وهذا ما يدرسه علم خاص بهذا الموضوع هو علم سيكولوجية

(١) أخرجه البخاري (٤٣٠٤) ومسلم (١٦٨٨).

الجماهير، وهو من العلوم التي تتطور بشكل مذهل، ويستخدمه السياسيون وأصحاب الأجندات العالمية بشكل دائم.

ألا ترى أن موضوع الشذوذ الجنسي كان قبل عشر سنوات موضوعاً هامشياً لا يلتفت إليه أحد، ولو التفت فإنما يكون ذلك باستقبح وإنكار، أما اليوم فقد صار من الموضوعات المهمة التي يجب التعامل معها، وأن من يتقبلون هذه الفكرة كثيرون جداً، بل ويرون أن الرافضين لها ديناصورات تأخروا في انقراضهم!

وكذلك السياسيون ألا ترى كيف يتلاعبون بأفكار الجماهير وعواطفهم، فتارةً يوججون العنصرية فيهم، وأخرى ينشرون التسامح وقبول الآخر، وكذلك الإعلام يمكن أن يصنع من شخصٍ ما قديساً ثم ينقلب عليه فيجعل منه شيطانا!

أرجو ألا تعزو ذلك إلى توفر الأموال عند هذه الجهات، فالأموال ليست كفيلاً بتحقيق أي إنجازٍ مما سبق ما لم يتم توظيفها في سياق صحيح قائم على فهمٍ علمي دقيق.

ولا شك أبداً أننا لو امتكنا مهارة الإقناع والتأثير وفهمنا علم سيكولوجية الجماهير، فإننا سنكون أقوى بكثير في نشر أفكارنا، ومحاربة أعدائنا، وغزوهم الفكري، والثقافي.

خاتمة:

إنما تنهض الأمم بالإنسان، وإنَّ ما يميز إنساناً عن آخر ما يمتلكه من قدرات، ومن أهم القدرات التي علينا أن نصب عليها جهودنا واهتمامنا المهارات العليا، وإننا لو جعلنا تطوير المهارات العليا عند الدعاة والمصلحين خصوصاً وعند شباب الأمة عموماً هدفاً استراتيجياً لنا، لاختصرنا على أنفسنا الكثير من الوقت والمال والجهود والتضحيات، ولاستثمرنا مواردنا خير استثمار، ولو أن هذا الحلم صعب إلا أن على كل منا أن يبذل ما يستطيع لتحقيقه.



نظرات
نقدية



ما وراء الثورات، جسرٌ إلى النهوض

أ. عبد الله أحمد عبد الرحمن

كاتب في قضايا الفكر والنهضة

الربيع العربي مرحلة فارقة في تاريخ المنطقة، انطلق ومرّ بمراحل عدّة ولما تنطفئ شعلته بعد، وقد نال اهتماماً عالمياً بحكم اتساع رقعته وتعدّد بلدانه، وعمق آثاره وقابليتها للانتقال، ومن أجمل ما كُتب فيه: كتاب أسئلة الثورة للدكتور سلمان العودة، والذي تضمّن خلاصات عميقة من تاريخ الثورات، ونصائح ذهبية للثوار، وإشارات للمخاطر التي ستواجههم، والمخارج التي تأخذهم إلى بر الأمان، والجسور التي تعبر بهم إلى النهضة.

تمهيد:

جاء كتاب «أسئلة الثورة» للدكتور سلمان العودة في أوج الثورات عام ٢٠١٢م، ليستبق فيه ظهور العقبات والتحديات والتساؤلات المستقبلية، مستشرفاً طول الطريق وكثرة المنعرجات، وأبعاد حلقات التفاعل والتحول الحضاري الكلي المتوقع، والنافذة الزمنية الكبيرة لتحقيقه وتمخض النهضة من رحمته، وذلك من خلال رؤيته الثاقبة والسابرة لمفهوم الثورة حلقة ومرحلة نابضة في بناء الوعي التجريبي، لها ما بعدها.

من المعروف أنّ كتابات المؤلف من النوع السلس الذي يباشر الموضوعات بوضوح ومثانة تصل مباشرة إلى مختلف الشرائح بعبارات يسيرة وبتركيب رصينة، وبالتالي فإن شرحها قد يكبل حيويتها، ويحيد بها عن سعة اعتبار ما بين دفتيها؛ لذا أقول: هكذا فهمت. ونحن هنا لا نحصر وريقاتنا هذه في كتاب الشيخ ورؤيته، بل نتدارس الطرح والواقع والتاريخ ونتوسع بمحاذاته، ونحاول الإثراء كذلك ما أمكن، مجتهدين حسب تصورنا البشري المحدود.

ولا بد أن نشير إلى أننا في طرحنا لموضوع المقالة هنا -بغض النظر عن عنوان الكتاب- نَعْنَى بدراسة العلاقة العامة بين الثورات والنهضة نموذجاً وظاهرة، وليس أحداثاً وتفصيل

بالدرجة العليا، وبالتالي فلم يتعرض المؤلف، وكذلك هذه المقالة لثورة بعينها، ولا إلى مدى نجاحها ودروسها التفصيلية؛ وذلك لأننا نرى أن الثورات في حد ذاتها تسهم في نقلة معرفية عامة ووعي وتجربة كحلقة ستؤدي إلى ما بعدها، لكن يلزمها حلقات أخرى مترابطة معها كمتطلبات لنجاح أية ثورة كثورة.

إنّ نجاح أحاد الثورات واستقلال الدول أمرٌ يلزمه تضافر حلقات أخرى كالإصلاح والعلم والاجتماع والهوية وغيرها إلى جانب حلقة الثورة على الاستبداد والتسلط والاستعمار. من هنا نرى مثلاً قصور وتعثر التحول النهضوي والاستقلال التركي الحقيقي، رغم الوصول إلى السلطة وحصول ثورة سياسية، وذلك لعدم تفعيل الحلقات الإصلاحية الأخرى بشكل حثيث وكاف. وهذا ما لسنا بصدد دراسة أمثاله هنا؛ لأنه مجال خاص يستحق دراسة حالاته وفرزها بشكل مسهب يتعمق في واقعها الخاص بأحاديها وعمومها.

”
إنّ نجاح الثورات واستقلال الدول أمرٌ يلزمه تضافر حلقات أخرى كالإصلاح والعلم والاجتماع والهوية وغيرها، إلى جانب حلقة الثورة على الاستبداد والتسلط والاستعمار

مقدمة مختصرة حول النموذج:

نجد أنّ المؤلف في ثنايا كتابه يرسم بهدوء دائرة واسعة، واضعاً أسئلة الثورة كحلقة نابضة متجددة على طريق سؤال «النهضة» الأكبر، دون أن يُصرح بلفظة «النهضة» إلا في الجزء الأخير من الكتاب. نعم؛ العناوين والمفردات انتظمت لتعطي معنى لمفهوم الثورة يتسق مع حالة الصيرورة والتحول، وليس مجرد الانقلاب حسب المزاج المتحمس الفوري والتصور المعتاد

للعوام، فكان من الطبيعي أن يؤكد الشيخ على أنها لا تلتقي مع نموذج الثورة الخمينية، ولا الثورات البلشفية وأضرابها.

تية المثقف والفقهاء:

أراد المؤلف تحت هذا العنوان في تمهيد الكتاب أن يطرح شتى الأسئلة الواقعية التي تختلج في الأذهان قبل أن يشرع في بسط نصائحه، حيث يقول: «بعد الحرب العالمية الثانية كتب فرانسوا فورييه مقالةً بعنوان: «تية المثقفين بعد الحرب العالمية الثانية». وبعد الثورة الجزائرية ضد الاستعمار كتب مالك بن نبي: «تية المثقفين الجزائريين بعد الثورة»^(١). الآن ونحن نعيش ربيع الثورات العربية أشعر أن هناك حالةً يمكن أن نسميها كذلك: «تية المثقفين بعد الثورات العربية»؛ تية في البحث عن المخرج... تية في إعادة بناء المفاهيم... تية في تصور واقع الثورة... تية في إعادة ترتيب العلاقات، الحلفاء، الأصدقاء، والأعداء. في زمن التيه لا تستغرب من كثرة الحلول والأفكار والأطروحات. وفي زمن التيه يشعر التائه أن حله هو الحل المقدس... ويستمسك الكثير بحلولهم الخاصة. وفي زمن التيه جميع الحلول مسكونة بالخوف والتردد»^(٢).

يكمل الشيخ قائلاً: «ثمَّ حاجة ماسة في ظل المتغيرات العربية إلى ظهور فقهاء ذوي نظر سديد وثقافة، إضافة إلى العدالة والانضباط الأخلاقي، وواجب الدول والمجتمعات والمؤسسات السعي في صياغات عادلة أكثر من التوجه للاستحواذ على السلطة. نحن بحاجة إلى الفقيه الذي يتعامل مع النصوص أكثر من الواقع؛ كحاجتنا إلى المفكر الذي يتعامل مع الواقع أكثر من النصوص...»^(٣).

(١) أسئلة الثورة، للدكتور سلمان العودة، ص (١٧).

(٢) المرجع السابق، ص (١٧-١٨).

(٣) المرجع السابق، ص (١٨).

أسئلة ومفاتيح:

دعونا ننظر في تعريف المؤلف الدقيق للثورة تحت عنوان (في مفهوم الثورة)، حيث ستتضح تلك الدائرة الأكبر أكثر عند النظر في محتوى العناوين الأخرى: (تية المثقف والفقير)، (هل التاريخ يعيد نفسه؟)، (بحثاً عن الأسباب)، (متى تحدث الثورة؟).

ماذا أراد أن يقول الشيخ؟ أو على الأقل؛ ما الذي يمكن أن نفهمه منه؟ فلنقرأ ما تركه لنا تحت عنوان (بحثاً عن الأسباب)، وكيف تحدث عن خاصية التجديد والإصلاح، ثم وضع السبب الأول تحت إحدى السنن الإلهية المتعلقة بالتجديد والتغيير ما بين ارتفاع وهبوط، كما دل على ذلك حديث أنس في البخاري: (حَقَّ عَلَى اللَّهِ أَنْ لَا يَرْتَفَعَ شَيْءٌ مِّنَ الدُّنْيَا إِلَّا وَضَعَهُ)^(١). لنتأمل لعلنا نصل إلى المدى الواسع لدائرة أسئلة الثورة، وربما إلى حيث يريد أن يصل بنا صاحب الكتاب.

يبدو أن أسئلة المؤلف الاستشرافية والمبكرة جداً جاءت من خلال استقرار نافذ لصيرورة المجتمعات في عصور التحولات، فقد أبان عنها بوضوح تحت عنوان (هل التاريخ يعيد نفسه؟)، ثم (مفهوم الثورة) عبر إشاراته إلى مسيرة الثورة الفرنسية الطويلة ومرورها بتعرجات اجتماعية وسياسية. لقد اختار الشيخ فيما اختار بعناية للتدليل على ذلك بعضاً من مقولات ألكسيس توكفيل (١٨٠٥ - ١٨٥٩م) المنظر السياسي والاجتماعي والمؤرخ للديمقراطية ووزير الخارجية الفرنسية. يدرك العودة أن توكفيل تقلب بين اليسار والوسط، والمعارضة والموالات، وسافر طويلاً إلى أمريكا وكندا، وعان تجربتهما الثورية والديمقراطية، ودرس حال السجون والسجناء، فكان كتابه المرجعي الكبير (الديمقراطية في أمريكا).

(١) أخرجه البخاري (٢٨٧٢).

«ثمَّ حاجة ماسة في ظل المتغيرات العربية إلى ظهور فقهاء ذوي نظر سديد وثقافة، إضافة إلى العدالة والانضباط الأخلاقي، وواجب الدول والمجتمعات والمؤسسات السعي في صياغات عادلة أكثر من التوجه للاستحواذ على السلطة»
سلمان العودة - أسئلة الثورة

دعونا نلاحظ أنّ مناسبة إشارة المؤلف إلى مراحل وتحديات مختلف الثورات خصوصاً الفرنسية -الحالة الأبرز في عصر التغيير الأوروبي، لا سيما الاجتماعي والسياسي منها- واختطافها على يد البرجوازية ونابوليون، ثم تقلبها بين الجمهورية الفرنسية الأولى والثانية والثالثة، لم تكن تلك اللفتات منه إلا في سياق التنبيه على مسار حلقات الثورات والتجديد والتغيير ضمن عملية النهوض التي أشار إلى أنها ستسغرق أزماناً ولا بد!

وضمن كتاب (أسئلة الثورة) كانت هناك إجاباتٍ إسعافيةً مستعجلة، اقتضاها أوار الثورة وحماس الجماهير وشدة التطلعات وبداية نوازل جديدة. وكذلك هناك بيانٌ توضيحي وربطٌ لأساسيات وتثبيتات فقهية لازمة -مثل مختلف مسائل السياسة الشرعية- حتى يتكامل الطرح وينتظم المعنى والمبنى.

العلاقة مع الآخر جسراً إلى النهضة:

استقرأ المؤلف استباقياً وطرح مقدماً التحديات والحلول المقترحة في العام ٢٠١٢م، فمثلاً: تكلم بوضوح عن الثورات المضادة في وقت ارتفاع موج الثورات، واستشرف أبرز تحديات العلاقات البيئية داخل طبقات الثورات، وكذلك الغيرية حولها. تلك العلاقات الجسرية مع الذات والآخرين التي ختم بها كتابه -يمكن إدراجها تحت (فقه الحياة) كما في مسمى كتاباته

الأخرى- هي صلة الوصل التي تُنشط وتُفعل حلقات منظومة النهضة؛ لا سيما المعرفية والفقهية والسياسية الشرعية والصيرورية الثورية والمقاصد الكلية، لتعبر بنا الجسور في العملية النهضوية في محصلة ستبقى تتغذى دورياً على مفردات هذه المنظومة، ولتتراكم نحو الوثبة النهضوية الكاملة، مُشكّلةً نهوضاً حضارياً يمر إزاماً بكل المتطلبات الشرعية والعقلية والسُننِيَّة والوقتيَّة والتكاملية، وإن استغرقت أجيالاً متتالية.

لقد أطلق المؤلف عنوانه (الثورة مقدمة للنهضة) بعناية في آخر الفصل الرابع عقب العنوان (ما بعد الثورة وسؤال العلاقة مع الآخر)، ومباشرة قبل عنوان الفصل الأخير (قلق ما بعد الثورة)، لتتجلى بذلك حيوية التجسير بين الثورة والنهضة عبر ممرات العلاقة مع الآخر، والتي تستدعي الكثير من السياسة الشرعية والكليات والمرونة الفقهية والتجربة والحكمة والصبر. لذا أخذنا الشيخ إلى مدخل «النهضة» في خضم انتقاله بين عناوين الفصلين الأخيرين والتي تتابعت كأسئلة وأجوبة ترشيديَّة وتجسيرية تدور كلها في فلك العلاقات مع الآخرين بكل أصنافهم، في ملحمة فك القيود وتخطي الموانع ثم العبور من حالة الثورة إلى النهضة.

العلاقات الجسرية مع الذات والآخرين هي صلة الوصل التي تُنشط وتُفعل حلقات منظومة النهضة، لتعبر بنا الجسور في العملية النهضوية، ولتتراكم نحو الوثبة النهضوية الكاملة، مُشكّلةً نهوضاً حضارياً يمر إزاماً بكل المتطلبات الشرعية والعقلية والسُننِيَّة والوقتيَّة والتكاملية، وإن استغرقت أجيالاً متتالية

وهكذا أخذت العناوين برقاب بعضها البعض، وانتظمت، مثلاً في: «الإسلاميون والعلاقة مع غير الإسلاميين»، «الإسلاميون والعلاقة مع الغرب»، «المصالحة الوطنية»، «الثورة تجب ما قبلها»، «مخاوف الصراعات الثورية»، «الثورة مقدمة للنهضة»، ثم جاءت مباشرة عناوين الفصل الخاتم «قلق ما بعد الثورة»، مثل: «سرقة الثورات»، «الثورة والتدخل الخارجي»، «الثورة والفتنة الطائفية»، «مستقبل الثورة إلى أين؟».

دعونا نتذكر أن هذا كله ليس بدءاً من التاريخ ولا القول أو الفقه؛ فقد تحقّق كسر قيود وحصار وحواجز المشركين في مكة أمام انطلاق الدعوة وتأثيرها من خلال فتح كل نوافذ العلاقة مع الآخر، حيث امتدت الجسور إلى الحبشة وغفار وأسلم -المتحكمة بطريق تجارة اليمن- ودؤس من خلال النجاشي وأبي ذر والطفيل بن عمرو الدوسي، وامتدت إلى الطائف وبنو النجار والأنصار، ثم توجت بوثيقة المدينة مع جميع أطرافها اتساقاً مع مفهوم حلف الفضول. كما تمّ إرسال معاذٍ إلى اليمن، فضلاً عن قبول صلح الحديبية ثم الموقف من أبي بصير، مما شكّل حالة من اللامركزية والديناميكية والتواصلية الخارجية، سعت قريش جاهدة إلى منعها منذ البداية، كي تخنق حالة النهوض الرسالي وأسباب انتعاش كيانه وتُعطلّ مراكب عالميته... ثمّ ما لبث كلُّ ذلك أن توجّج بانتصار إقليميّ وعفوي واستماليّة تجلّت في: (مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سَفِيَانَ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ أَغْلَقَ عَلَيْهِ بَابَهُ فَهُوَ آمِنٌ)، وكذلك في: (أذهبوا فأنتم الطلقاء).

إننا نلاحظ اليوم بجلاء أن المكر العالمي حريصٌ على عدم خروج الدعاة والدعوة من مركزيتها الجغرافية والمادية والمعنوية والإدارية، حتى يسهل عليه محاصرتها وقطع أسباب انتعاشها، ومنع تنفسها من رئات أخرى، فاجتهد في قطع أوصالها وتواصلها مع أطرافها وأطراف العالم. إنَّ المستكبرين يعلمون أن كياناتهم تهددها عالمية الرسالة بما تحمله من قوة الحق

ونور الوحي وميثاق الفطرة وعدالة القضية وسمو القيم. إذن، فلا بد أن يشغلوها بصراعات داخلية وكبت وردود أفعال غلواء يستحثونها، فتبقى بذلك الأمة مشلولة لا تكاد تضمد جراحاتها، وبالتالي يتم إعاقة تمددها في مساحات قوتها الرسالية بهدف تعطيل تحركها المتسارع في نطاق ضعف المجتمعات الغربية وخواءها الروحي وفراغاتها الحداثية، حيث ستجد الدعوة مدداً وأنصاراً وحلفاء يتعاضمون من داخل البيت الغربي^(١).

”
إنَّ المستكبرين يعلمون أنَّ كياناتهم تُهدِّدها
عالمية الرسالة بما تحمله من قوة الحق
ونور الوحي وميثاق الفطرة وعدالة القضية
وسمو القيم. إذن، فلا بد أن يشغلوها
بصراعات داخلية وكبت وردود أفعال غلواء
يستحثونها، فتبقى بذلك الأمة مشلولة لا
تكاد تضمد جراحاتها

نماذج أخرى لامركزية من الصدر الأول في تبادل المهام وتدويرها:

ها هو الرسول ﷺ يبعث أسامة على رأس كبار الصحابة،
وها هو أبو بكر رضي الله عنه يشكل أربعة جيوش تتعاقب باتجاه فتح
الشام. ثم نجد عمر بن الخطاب رضي الله عنه يحطم المركزية، فيعزل
خالداً حتى لا تتعلق القلوب بخالد -الذي صنع تألقه موقف
لا مركزي آخر في مؤتة، فيظن الناس أن النصر لا يكون إلا
بخالد، فتعجز همهم. وها هم صغار الصحابة كابن عمر
يدخلون مع أشياخ بدر.

(١) ينظر: مقالة "مقدمات معرفية في التدافع الأممي والحضاري ودور اللامركزية فيه"،
لطاهر صيام، مجلة رواء، العدد ٢٤.

ولنتأمل دور أوقف الأوقاف التي خرجت عن المركزية، فعُنيت بالعلماء والطلاب والمرضى حتى قيل إنها دولة موازية. وصارت حوالي ثلاثة أرباع أراضي مصر أوقافاً في عهد المماليك. وتلكم فاطمة الفهرية التي بنت أول جامعة في العالم بوقفٍ من مالها، فخرّجت لنا أمثال ابن خلدون والإدريسي. ودوننا السمر المرابطون الذين جاؤوا من السنغال ومالي ومورتانيا فأنقذوا الأندلس المتخمة بالنخب!

اطلاعٌ معرفي وسموٌ أخلاقي:

ما سبق يدل على أنّ المؤلف لديه نموذجٌ معرفي واضحٌ ذو مرتكزات ليس أقلها فهمه للسنن القرآنية والسيرة والتاريخ والحضارة والعمران، ومختلف عصور النهضة والتحوّلات، بل ووعي بكينونة النفس البشرية وضرورة المجتمعات! وهو في كتاباته المتنوعة لا تغيب عن ذهنه أهمية عالم الأفكار وتناقُلها في سياق الإنسان والنهضة، ولا تنمية الفهم الاجتماعي من أجل الوصول التدريجي إلى حالة العمران الحضاري.

د. العودة قارئٌ جيد لتشخيصات الأئمة مثل ابن تيمية -استجماع أوصال الأمة مقابل التتار- والعز بن عبد السلام -القدوة والمقاصدي- وابن خلدون في الاجتماع والعمران. وهو مُطلّعٌ على كتابات الخبراء المعانين أمثال مالك بن نبي وعلي عزت بيغوفتش والشيخ صالح الحصين -درس القانون في فرنسا وكتب عن مفهوم الحرية- ومحمد أسد وجارودي وهوفمان وعبد الوهاب المسيري، حيث استوعب الشيخ تفكيكاتهم للنماذج المعرفية في عصور النهضة الغربية والحدّاث، بما فيها من عوار ومحاذير وانسلاخ، مقابل مقارنتها بالنموذج الإسلامي.

لقد قدم الشيخ في كتابه السلس المختصر «أسئلة الثورة» إعلاناً راقياً متحضراً للتجديد والإصلاح يفوق كثيراً ما قدّمه فلاسفة الثورة الفرنسية التي كانت موغلة في العنف والنهب

وحدة الأيدولوجيا حسب تعبير عبد الوهاب المسيري. في هذا الكتاب ما يسمو بكثير فوق كتب مؤسسية في عصور النهضة الأوروبية، كمثل كتاب «العهد الجديد» لجان مسيليه الراهب الذي ألحد، وهو صاحب مقولة: «اشنقوا آخر ملك بأمعاء آخر قسيس»، فوصل كتابه المدفون بعد موته بعشرات السنوات إلى صالون الفلاسفة البارون دي هولباخ وروسو وفولتير، فأطلقوا منه هذا الشعار العنيف للثورة، وانطلق معها النهب والعنف.

ما قدمه الشيخ في هذا الكتاب مع نتاجه المتنوع الآخر، لا سيما ما جُمع في كتابي «فقه الحياة» و«شكراً أيها الأعداء»، يفوق بمراحل عدلاً وفقهاً وإنسانية وأخلاقاً دُرّة ما أنتجه توماس هوبز ثم جان جاك روسو في العقد الاجتماعي، مع الفارق الكبير في حجم المكتوب، مقابل وضوح اختصار الشيخ وبعده عن الفلسفة لصالح النموذج المعرفي الإسلامي المباشر.

تجلت بعض تلك المعاني والجسور في كتابه «شكراً أيها الأعداء» حينما قال: «أسوأ صناعة في الحياة هي صناعة الأعداء، وهي لا تتطلب أكثر من الحمق وسوء التدبير وقلة المبالاة، لتحشد من حولك جموعاً من الغاضبين والمناوئين والخصوم... وقد علمتني التجارب أنّ من الحكمة الصبر على المخالفين وطول النفس معهم واستعمال العلاج الرباني بالدفع بالتي هي أحسن: ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾».

المجال العلاقتي:

عالم العلاقات من أهم موضوعات ومدخلات فقه الدعوة والتغيير وعلوم الاجتماع، ومن خلاله تتم حسبة (المخاطر والفرص)، وبالتالي حجم المكاسب الإصلاحية على طريق النهضة. عالم العلاقة مع الآخر يجب أن يُحلق لينتقل بين الذات والموضوعات - كالدعوة والإصلاح والحرية والعدالة -

ليحقق المقاصد الممكنة، فلا يتحجر ويتلاشى في حيز ضيق وكيئونةٍ محدودة. وفي ذات الوقت، ينبغي أن تنطلق العلاقات من الذات -أفراداً وجماعات- إلى الآخر -الغير بكل أشكاله- لتصل تلك الموضوعات إلى الآخرين أو يُتخذ موقفٌ بصددها، سواءً كان مهادناً أو محالفاً أو مواجهاً.

عالم العلاقة مع الآخر يجب أن يُحلق لينتقل بين الذوات والموضوعات -كالدعوة والإصلاح والحرية والعدالة- ليحقق المقاصد الممكنة، فلا يتحجر ويتلاشى في حيز ضيق وكيئونةٍ محدودة. وفي ذات الوقت، ينبغي أن تنطلق العلاقات من الذات -أفراداً وجماعات- إلى الآخر -الغير بكل أشكاله- لتصل تلك الموضوعات إلى الآخرين أو يُتخذ موقفٌ بصددها، سواءً كان مهادناً أو محالفاً أو مواجهاً

بهذا يصبح لدينا مجالان؛ مجالٌ ذاتي ومجالٌ علاقتي يشمل الموضوعات السديدة التي سنوصلها إلى الآخر من خلال فقهٍ شرعي يستوعب المقاصد ويستحضر الشكل الممكن والأصلح واقعاً، مُستخدماً علوم الاجتماع وأدوات الحكمة وسياسة الأمور. وينبغي أن ننتبه هنا إلى أن هذا الأمر تركيبي، فكثير من الأشياء تتغير طبائعها بسبب العلاقات التي تؤثر فيها، ولناخذ على سبيل المثال؛ الحكمة من سهم المؤلفة قلوبهم، وأعطيات غنائم حنين لغير الأنصار، وبعُد النظر في قوله ﷺ لا يتحدّث الناس أن محمداً يقتل أصحابه^(١). وكذلك تحقيق التدرج والأخذ بيد الناس،

(١) أخرجه البخاري (٤٩٠٥).

كما ورد في الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بعث معاذاً إلى اليمن، قال له: (إنك تأتي قومًا من أهل الكتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فتردُّ على فقرائهم، فإن هم أطاعوا لذلك فأياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب) ^(١).

المجال العلاقتي وارتباطه بالتنفس الحضاري عند مالك بن نبي:

مالك بن نبي - كما يشخصه سليمان الخطيب في كتابه (فلسفة الحضارة عند مالك بن نبي) - يرى باختصار أن الحضارة تتنفس لتنهض من خلال تصحيح علاقة الإنسان بالذوات والأشياء بعد الأفكار. فينطلق مالك في تصحيحه لعلاقة الإنسان بالأفكار من خلال ضرورة توجيه الأفكار أولاً، ثم ربطها والتربيط بين أصحابها ثانياً، ثم التركيز على الأفكار الفعالة ثالثاً.

لذا قرر مالك بن نبي أن الحضارة ستتحرك قُدماً عند تفعيل الأفكار الفعالة لتعمل وتؤثر في عالم البشر والأشياء، فتنتج منتجات حضارية. وتفعيل الأفكار عند مالك يكون بالوصول إلى (منطق العمل) والذي سيقلع بالعمران الاجتماعي والمدني.

هل فاتنا عقل ابنة شعيب؟

العالم الداعية والقائد الموفق والمؤسسات المهنية والدعوية ليس ما يميزهم عمل الخير وحسب، بل توظيفهم الناس في الخير فيكونون بذلك صنّاع خيرات جارية ويتحول الناس إلى

(١) أخرجه البخاري (٤٣٤٧) ومسلم (١٩).

معامل الخير، فتنشأ لدينا مصانع خير نهضوية متوالية؛ تُؤتي
أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا.

ألا نرى كم نحن معطلون اليوم عن صناعة الخير الجاري
ومنهمكون أكثر بمجرد عمل الخير بأيدينا المحدودة، والذي لا
نكاد نسد طلباته وحاجاته المتكاثرة، لا سيما في ظل مركزيتنا
الضيقة. ولو تأملنا في مزايا الأوقاف وثمراتها مثلاً لوجدنا أنها
كانت مصانع خير جارية متنوعة في حقبات مهمة، وحملت
الأمة وقامت مقام الدولة لما تهاوت أمام الفاطميين والصليبيين.
أما توظيف الناس الأقوياء المتخصصين أو تأهيلهم في سبل
الخير فهي صناعة ودرجة أعلى تحولهم إلى منتجي خيارات
وأيدٍ كثيرةٍ متنوعةٍ في الخير.

إذا لم ينجح الدعاة في إشراك طاقات الأمة
وتوظيفها في شتى المجالات، فعليهم أن
يعلموا أنهم لا يدورون في فلك الأمة ولم
ينزلوها منزلتها، ولا هم تدبروا شأن الأمة في
كتاب ربهم

خلاصة ونتيجة:

إن أي دعوة أو حركة أو مؤسسة كبرى لا تستطيع أن توجد
مجالاتٍ لتوظيف طاقات الأمة وتفعيلها بتنوع ولا مركزية، هي
هياكل بروتوكولية جامدة أو فردية بعباءة مركزية حتى لو
أكثر من المواعظ والعلاقات العامة والمؤتمرات.

وفيما الأصل والممكن أن تكون جموع الأمة قوة أممية كبيرة
تماماً كما كانت أمام الصليبيين والتتار. يومئذ كانت الأمة
تمتلك بنية وقفية وتعليمية مؤسسية ضخمة لا مركزية وحركة
علمائية مترفعة وتربوية متغلغلة، استطاعت أن تجمع أطراف

كيانها وتنهض. بينما لا مركزية في الإسلام إلا للوحي والرسالة والأمة واجتماعها، وما عدا ذلك لا بد أن يدور في فلك الأمة.

إذا لم ينجح الدعوة في إشراك طاقات الأمة وتوظيفها في شتى المجالات، فعليهم أن يعلموا أنهم لا يدورون في فلك الأمة ولم ينزلوها منزلتها، ولا هم تدبروا شأن الأمة في كتاب ربهم.

لذا ينبغي على العلماء أن يتنبهوا إلى (تغول دورهم ومركزيتهم) على حساب الدعوة والدعوة التي لا تنتعش وتنتشر بفاعلية إلا بالتخصص والتنوع والإبداع والتمدد اللامركزي.



تأصيل



هل نحن بحاجة للسنة النبوية؟

أ. عبدالملك الصالح

إجازة في الشريعة من جامعة دمشق، ماجستير في الحديث وعلومه

٤٧

العدد ٢٨ | ربيع الآخر ١٤٤٦هـ - تشرين الأول / أكتوبر ٢٠٢٤م

دعوة

نزل الله القرآن الكريم وذكر أن فيه تبياناً لكل شيء، فهل هذا يعني أنه لا حاجة للسنة النبوية وأحاديث النبي ﷺ، لأن كل شيء موجود ومفصل في القرآن؟ وهل يمكن الاستغناء عن السنة النبوية؟ وما هي مآلات هذا التوجه؟

تمهيد:

تعرّضت السنة النبوية إلى شبهات عديدة، تتعلق بثبوتها عن النبي ﷺ أو بحجيتها في الشرع، ومن الشبهات التي تتعلق بحجية السنة النبوية (مع الإقرار بثبوتها أو ثبوت بعضها): شبهة الاكتفاء بالقرآن الكريم وعدم الحاجة إلى السنة النبوية، وأن القرآن الكريم يغني عنها.

ويستند أصحاب هذه الشبهة على آيات يفسرونها على غير وجهها، وفي هذه المقالة بيان هذه الشبهة والآيات التي يستندون إليها، وتوجيه هذه الآيات بحسب التفسير الصحيح الذي تقتضيه قواعد العلم.

وابتداءً نقول: ليس في هذه الشبهات شبهة قوية أو خطيرة؛ فالحق ظاهر والباطل زاهق، لكن قد يغترّ بعض الناس بالشبهات بسبب كثرة عرضها عليهم وتكرار طرّقها لمسامعهم مع عدم اطلاعهم على الردّ عليها ووجوه بطلانها، أو بسبب مكانة الذي يعرضها في أنفسهم؛ ككبير مقدّم أو خطيب مفوّه أو إعلامي مشتهر أو عالم متقدّم في فن من فنون العلم.

والغالبية العظمى ممن يطرحون هذه الشبهات ليسوا من المتخصصين أصلاً في دراسة العلوم الشرعية ولا لهم إسهامات معروفة فيها، لكنهم يستغلّون المنابر الإعلامية ويضفي عليهم ألقاب كبيرة لصرف أنظار الناس إليهم وإلى ما يقولون.

وبعض المغترّين بهذه الشبهات يحملون شهادات شرعية أو درسوا في معاهد شرعية، لذلك فعرض هؤلاء للشبهات وتبنيهم

لها ونشرها بين الناس يُغرُّهم بها ويقربها من قلوبهم؛ إذ إن من يعرضها شيخ أو عالم أو متخصص في العلوم الشرعية! وهذه المقالة موجّهة أساسًا للمؤمنين بالسنة النبوية المقرّين بحجيتها؛ تثبيتًا لمكانتها في القلوب والعقول، وزيادة في اطمئنانهم لها وتعلقهم بها، وحماية من شرور هذه الشبهات كي لا تتسلل إلى عقولنا وقلوبنا.

ليس في شبهات منكري السنة شبهةً قويّةً أو خطيرةً؛ فالحقّ ظاهر والباطل زاهق، لكن قد يغترّ بعض الناس بالشبهات بسبب كثرة عرضها عليهم، مع عدم اطلاعهم على الردّ عليها ووجوه بطلانها، أو بسبب مكانة الذي يعرضها في أنفسهم لشهرته أو منصبه

أدلتهم على الاكتفاء بالقرآن الكريم:

يستند أصحاب هذه الشبهة على بعض الآيات من القرآن الكريم أشهرها آيتان:

« الأولى: قول الله تعالى: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨].

« الثانية: قول الله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩].

ولنعرض لأقوال المفسرين في هاتين الآيتين لنتبين هل فيهما حجة على ما يقولون؟

أقوال المفسرين في الآية الأولى:

للمفسرين فيها قولان:

« القول الأول: المراد بالكتاب هنا هو (اللوح المحفوظ) أو (أم الكتاب).»

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «ما تركنا شيئاً إلا قد كتبناه في أم الكتاب»^(١)، وقال قتادة: «في الكتاب الذي عنده»^(٢).

وهذا القول ذكره الطبري ولم يذكر غيره ثم قال: «وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل». ثم رواه بالإسناد عن ابن عباس رضي الله عنهما وعن عبد الرحمن بن زيد.

« القول الثاني: أن المراد هنا هو القرآن الكريم، قال أبو منصور الماتريدي: «وقوله عز وجل: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ اختلف فيه:

قال بعضهم: (ما فرطنا) أي: ما تركنا شيئاً إلا وقد ذكرنا أصله في القرآن.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ما تركنا شيئاً إلا قد كتبناه في أم الكتاب: وهو اللوح المحفوظ.

وقيل: (ما فرطنا): ما ضيعنا في الكتاب مما قد يقع لكم الحاجة إليه أو منفعة إلا قد بيناه لكم في القرآن»^(٣).

وأكثر الذين ذكروا القول الثاني ذكروه مع القول الأول؛ أي قولاً ثانياً محتملاً ولم يرجحوه على القول الأول، وإن كان بعض من ذكره قد رجحه على قول ابن عباس رضي الله عنهما.

(١) تفسير الطبري (٢٣٤/٩)، وتفسير ابن أبي حاتم (١٢٨٦/٤).

(٢) تفسير عبد الرزاق (٤٧/٢).

(٣) تفسير الماتريدي (٨٠/٤).

وخصّصوا عموم الآية ليتوافق معناها مع أنّ القرآن ليس فيه كل شيء، فليس فيه تفاصيل علم الطب ولا الحساب ولا تفاصيل كثير من العلوم، ولا مذاهب الناس ولا دلائلهم، قال الرازي: «**مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ**» يجب أن يكون مخصوصاً ببيان الأشياء التي يجب معرفتها...» ثم قال: «جميع آيات القرآن أو الكثير منها دالة بالمطابقة أو التضمن أو الالتزام^(١) على أنّ المقصود من إنزال هذا الكتاب بيان الدين ومعرفة الله ومعرفة أحكام الله»^(٢).

وهذا التخصيص لا يُحتاج إليه على القول الأول؛ فقد كتب ربنا جل وعلا كلَّ شيء في أمّ الكتاب، كما قال تعالى: **﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنَ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾** [الأنعام: ٥٩]، وغيرها من الآيات التي تدلّ دلالة واضحة بيّنة على ما ذكرنا.

عند وجود أكثر من وجه في تفسير آية من كتاب الله؛ ينبغي ترجيح القول الصحيح من خلال عدة أمور، منها: غرض الآية الذي سيقّت لأجله، وكذلك سياقها ضمن الآيات التي قبلها والتي بعدها

(١) هذه من دلالات الألفاظ على معانيها، فالمطابقة: دلالة اللفظ على تمام المعنى الذي وُضع له؛ كدلالة لفظ (الإنسان) على الحيوان الناطق، ودلالة التضمن: دلالة اللفظ على جزء المعنى الذي وُضع له؛ كدلالة لفظ الإنسان على النطق فقط، ودلالة الالتزام: وهي دلالة اللفظ على معنى لازم له في الذهن لا ينفك عنه؛ كدلالة لفظ الأسد على الشجاعة ولفظ السكر على الحلاوة. ينظر: الوجيز في علم الأصول، للدكتور محمد الزحيلي (١٣٧/٢).

(٢) تفسير الرازي (٥٢٦/١٢).

فما الراجح في معنى (الكتاب) في هذه الآية؟

الراجح في معنى الكتاب في هذه الآية هو (اللوح المحفوظ)، وترجيح هذا القول يدلّ عليه غرض الآية الذي سيقت لأجله، وكذلك سياقها، وبيان ذلك كما يلي:

غَرَضُ الْآيَةِ يَرْجِحُ الْقَوْلَ الْأَوَّلَ:

رجّح الطاهر بن عاشور القولَ الأولَ واستبعد القولَ الثاني؛ لأنّ القولَ الثاني لا يناسب غَرَضَ الآية. قال رحمه الله: «وجملة: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ مُعْتَرِضَةٌ لِبَيَانِ سَعَةِ عِلْمِ اللَّهِ تَعَالَى وَعَظِيمِ قُدْرَتِهِ؛ فَالْكِتَابُ هُنَا بِمَعْنَى الْمَكْتُوبِ، وَهُوَ الْمَكْنَى عَنْهُ بِالْقَلَمِ الْمُرَادِ بِهِ مَا سَبَقَ فِي عِلْمِ اللَّهِ وَإِرَادَتِهِ الْجَارِيَةِ عَلَى وَفْقِهِ كَمَا تَقَدَّمَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَتَبَ عَلَيَّ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾. وقيل: الكتابُ القرآنُ؛ وهذا بعيدٌ؛ إذ لا مناسبةٌ بالغرضِ على هذا التفسير، فقد أُورِدَ: كيف يشتمل القرآنُ على كل شيء؟ وقد بسط فخر الدين بيان ذلك لاختيار هذا القول، وكذلك أبو إسحاق الشاطبي في الموافقات»^(١).

سياق الآية يرجح القول الأول:

وفي سياق الآية ما يدلّ على أنّ المراد هنا اللوح المحفوظ لا القرآن الكريم، قال ابن تيمية رحمه الله: «وأما قوله تعالى: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ فهو بَعْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ ولهذا قال أكثر العلماء: إنّ الكتاب هنا هو اللوح المحفوظ»^(٢)، وذكر - رحمه الله - أنّه «أصحّ القولين»^(٣)، وقال أيضاً: «لأنّ الكتاب هنا في أشهر القولين هو اللوح المحفوظ كما يدلّ عليه السياق»^(٤).

(١) التحرير والتنوير (٢١٧/٧).

(٢) بيان تلبيس الجهمية (٢٢١/٨).

(٣) بغية المرتاد، ص (٣٢٦-٣٢٧).

(٤) درء تعارض العقل والنقل (٣٩/٩).

وقال القرطبي عن القول الثاني: «قوله تعالى: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي في اللوح المحفوظ؛ فإنه أثبت فيه ما يقع من الحوادث. وقيل: أي في القرآن، أي ما تركنا شيئاً من أمر الدين إلا وقد دللنا عليه في القرآن، إما دلالة مبيّنة مشروحة، وإما مُجملة يُتلقى بيانها من الرسول ﷺ، أو من الإجماع، أو من القياس الذي ثبت بنص الكتاب»^(١)، فهذا هو القرطبي يبيّن أنّ المراد من الكتاب لو كان «القرآن الكريم» فالذي فيه لا يدلّ وحده مباشرةً على الأحكام الشرعية التي يحتاجها الناس، بل لا بدّ من توسيع مصادر الدلالة عليها لتشمل السنة والإجماع والقياس مما ثبتت مصدريته للتشريع في أمّ المصادر كلها «القرآن الكريم».

من كلّ ما سبق نخلص إلى نتيجة واضحة فيما يخص استدلال أصحاب شبهة الاكتفاء بالقرآن عن السنة بآية: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾، وهي: أنه على القول بتفسير الكتاب بأنه اللوح المحفوظ: لا دليل لهم في الآية.

وعلى القول بتفسيره بأنه القرآن الكريم: لا دليل لهم في الآية أيضاً؛ لأنّ دلالة الآية مخصوصة بما يجب معرفته، ودالاتها عليه إما مباشرة أو بالإحالة إلى أدلة أخرى ومنها السنة النبوية^(٢)؛ فبطل استدلالهم بهذه الآية.

أقوال المفسرين في الآية الثانية:

وهي قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩].

قال الطبري رحمه الله: «وقوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ يقول: نزل عليك يا محمد هذا القرآن بياناً لكل

(١) تفسير القرطبي (٦/٤٢٠).

(٢) المقصود بالسنة هو ما ثبت عن الرسول عليه الصلاة والسلام.

ما بالناس إليه الحاجة من معرفة الحلال والحرام والثواب والعقاب»، ثم روى بالإسناد عن مجاهد: «مما أحلّ لهم وحرّم عليهم» وعن ابن جريج: «ما أمروا به ونهوا عنه»^(١).

وقال الواحدي: «قال مجاهد: يعني لِمَا أَمَرَ بِهِ وَمَا نَهَى عَنْهُ. وقال أهل المعاني: يعني لكلّ شيءٍ من أمور الدين؛ بالنصّ عليه أو الإحالة على ما يوجب العلم به من بيان النبي ﷺ أو إجماع، فهو الأصل والمفتاح لعلوم الدين»^(٢).

وقال البغوي: «**لِكُلِّ شَيْءٍ**» يُحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنَ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ، وَالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ، وَالْحُدُودِ وَالْأَحْكَامِ»^(٣)، وبنحو هذا قال عامّة المفسرين، قال ابن عطية: «وقوله: **لِكُلِّ شَيْءٍ** أي مما يُحْتَاجُ فِي الشَّرْعِ وَلَا بَدَّ مِنْهُ فِي الْمَلَّةِ؛ كَالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ وَالِدَعَاءِ إِلَى اللَّهِ وَالتَّخْوِيفِ مِنْ عَذَابِهِ، وَهَذَا حَصْرٌ مَا اقْتَضَتْهُ عِبَارَاتُ الْمَفْسِرِينَ»^(٤).

والعموم الوارد في هذه الآية غير مراد، بل هي من العام المخصوص، قال الباقلاني: «مخصوص فيما ألزم الناس معرفته»، وقال: «وكلّ ذلك على الخصوص وإن كان واردة بلفظ العموم»^(٥)، فالقرآن الكريم كما هو ظاهر لا يحوي كلّ أمور الدين والدنيا، بل لا يحوي كلّ أمور الدين؛ فأين في القرآن عدد الصلوات ومدّة المسح على الخفين ونصاب الزكاة وغير ذلك مما لا نجد له ذكراً في القرآن وهو من أمور الدين؟

(١) تفسير الطبري (٣٣٣/١٤).

(٢) التفسير البسيط (١٧١/١٣).

(٣) تفسير البغوي (٣٨/٥).

(٤) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٤١٥/٣).

(٥) الانتصار للقرآن، للباقلاني (٧٧٦/٢). وينظر: تأويلات أهل السنة، لأبي منصور الماتريدي (٥٥٥/٦)، والتذيل والتكميل في شرح كتاب التسهيل، لأبي حيان الأندلسي (١٩٣/٣)، وشرح مختصر الروضة، للطوفي (٢٧٢/٣).

القرآن الكريم لا يحوي كلّ أمور الدين والدنيا، بل لا يحوي كلّ أمور الدين؛ فأين في القرآن عدد الصلوات ومدّة المسح على الخفين ونصاب الزكاة وغير ذلك مما لا نجد له ذكرًا في القرآن وهو من أمور الدين؟

وذكروا أنّ بيان القرآن ليس صريحًا في كلّ الأمور التي بينها، فقد بين بعض الأحكام صراحةً وأحال في بيان بعضها إلى السنة كما قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤] (١)، قال الرازي رحمه الله: «وأما الفقهاء فإنهم قالوا: القرآن إنّما كان تبيانًا لكلّ شيء لأنه يدلّ على أنّ الإجماع وخبر الواحد والقياس حجة، فإذا ثبت حكم من الأحكام بأحد هذه الأصول كان ذلك الحكم ثابتًا بالقرآن» (٢).

ويؤكد الطاهر بن عاشور -رحمه الله- على هذا المعنى فيقول: «ولقد جمع القرآن جميع الأحكام جمعًا كليًا في الغالب وجزئيًا في المهم، فقوله: ﴿تَبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ وقوله: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣] المراد بهما: إكمال الكليات التي منها الأمر بالاستنباط والقياس. قال الشاطبي: لأنه على اختصاره جامع، والشريعة تمتّ بتمامه، ولا يكون جامعًا لتمام الدين إلا والمجموع فيه أمورٌ كلية» (٣).

(١) العدول عن لفظ (الكتاب) أو (القرآن) في هذه الآية إلى لفظ (الذكر) يفيد دخول السنة النبوية في الذكر المحفوظ، قال ابن حزم (الإحكام: ٩٨/١): «فأخبر تعالى كما قدمنا أن كلام نبيه صلى الله عليه وسلم كله وحى، والوحي بلا خلافٍ ذكرٌ، والذكر محفوظ بنص القرآن، فصحّ بذلك أنّ كلامه صلى الله عليه وسلم كله محفوظ بحفظ الله عز وجل مضمونٌ لنا أنه لا يضيع منه شيء؛ إذ ما حفظ الله تعالى فهو باليقين لا سبيل إلى أن يضيع منه شيء؛ فهو منقول إلينا كله، فله الحجة علينا أبدًا».

(٢) تفسير الرازي (٢٥٨/٢٠).

(٣) التحرير والتنوير (٤٠/١)، وقول الشاطبي الذي نقله: «فالقرآن على اختصاره جامعٌ، ولا يكون جامعًا إلا والمجموع فيه أمورٌ كليّات؛ لأن الشريعة تمت بتمام نزوله لقوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣]»، الموافقات (١٨١/٤).

وإلى هذا المعنى أشار الإمام الشافعي -رحمه الله- قبلهم فقال: «فليست تنزل في أحد من أهل دين الله نازلةً إلا وفي كتاب الله الدليل على سبيل الهدى فيها»، ثم فصل رحمه الله فقال: «فجماع ما أبان الله لخلقه في كتابه مما تعبد بهم لما مضى من حكمه جل ثناؤه من وجوه:

• فمنها ما أبانه لخلقه نصًا: مثل جمل فرائضه في أن عليهم صلاةً وزكاةً وحجًا وصومًا، وأنه حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ونص الزنا والخمر وأكل الميتة والدم ولحم الخنزير^(١)، وبين لهم كيف فرض الوضوء مع غير ذلك مما بين نصًا.

• ومنه ما أحكم فرضه بكتابه وبين كيف هو على لسان نبيه: مثل عدد الصلاة والزكاة ووقتها وغير ذلك من فرائضه التي أنزل من كتابه.

• ومنه ما سن رسول الله ﷺ مما ليس لله فيه نص حكم، وقد فرض الله في كتابه طاعة رسوله ﷺ والانتهاة إلى حكمه؛ فمن قبل عن رسول الله فيفرض الله قبل.

• ومنه ما فرض الله على خلقه الاجتهاد في طلبه وابتلى طاعتهم في الاجتهاد كما ابتلى طاعتهم في غيره مما فرض عليهم^(٢).

من كل ما سبق نخلص إلى نتيجة واضحة: أن القرآن الكريم بين أصول الدين وأصول الفرائض، وبين تفصيلات في بعضها. وأن القرآن الكريم أحال فيما لم يبينه إلى بيان النبي ﷺ.

(١) يعني أن تحريم هذه المذكورات ثبت بالنص عليها صراحةً (الزنا والخمر وأكل الميتة والدم والخنزير)، فهي مما أبانه الله تعالى لخلقه نصًا.

(٢) الرسالة، ص (٢١-٢٢).

«أَمَرَ تَعَالَى بِطَاعَتِهِ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ، وَأَعَادَ
الْفِعْلَ إِعْلَامًا بِأَنَّ طَاعَةَ الرَّسُولِ تَجِبُ
اسْتِقْلَالًا مِنْ غَيْرِ عَرَضٍ مَا أَمَرَ بِهِ عَلَى
الْكِتَابِ، بَلْ إِذَا أَمَرَ وَجِبَتْ طَاعَتُهُ مَطْلَقًا، سِوَاءَ
كَانَ مَا أَمَرَ بِهِ فِي الْكِتَابِ أَوْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ»
أعلام الموقعين لابن القيم

لماذا أحال القرآن على السنة؟

قبل أن نبدأ بالجواب لا بد أن نبين حقائق اتفق علماء المسلمين عليها، منها:

١. القرآن يأمر بطاعة الرسول ﷺ:

تكرّر الأمر في القرآن الكريم بطاعة رسول الله ﷺ، مقرونًا بطاعة الله تعالى أو أمرًا بطاعته مفردة.

فَمِنَ الْأَوَّلِ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣٢]، وغيرها من الآيات (١).

وَمِنَ الثَّانِي قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١]، وغيرها من الآيات الدالة بوضوح على وجوب طاعة الرسول ﷺ (٢).

فإن قيل: يأمر الله تعالى بطاعة رسوله فيما بلغه من القرآن الكريم، فالجواب:

تكرار فعل الأمر بالطاعة (أطيعوا) مع الله ومع الرسول ﷺ يدل على أن الطاعة للأمور بها مع الرسول ﷺ طاعة

(١) ينظر مثلاً الآيات: [النساء: ٥٩]، [المائدة: ٩٢]، [النور: ٥٤]، [محمد: ٣٣]، [التغابن: ١٢].

(٢) ينظر مثلاً الآيات: [النور: ٥٦]، [النساء: ٦٤-٦٥]، [النساء: ٨٠]، [الحشر: ٧].

حقائق متفق عليها حول السنة النبوية

- ١ القرآن يأمر بطاعة الرسول ﷺ
- ٢ طاعة الرسول ﷺ من طاعة الله تعالى.
- ٣ السنة وحي من الله

لماذا أحال القرآن الكريم على السنة النبوية؟

- وجود أوامر مجملة في القرآن بحاجة لتفصيل
- وجود نواهي في القرآن الكريم بحاجة لتفصيل

مستقلة عن أوامر القرآن، قال ابن القيم رحمه الله: «فَأَمَرَ تعالى بطاعته وطاعة رسوله، وأعاد الفعل إعلماً بأن طاعة الرسول تجب استقلالاً من غير عَرْضٍ ما أَمَرَ به على الكتاب، بل إذا أمر وجبت طاعته مطلقاً، سواء كان ما أمر به في الكتاب أو لم يكن فيه»^(١).

٢. طاعة الرسول ﷺ من طاعة الله تعالى:

لا يعني قول العلماء: إن للرسول ﷺ طاعةً مستقلةً أنه يطاع فيما يخالف أمر الله تعالى أو في تحليل ما حرم الله أو تحريم ما أحل الله، فهذا لا يخطر ببال عاقل، بل معناها أن يطاع الرسول ﷺ فيما أمر به أو نهى عنه مما سكت عنه القرآن ولم يأمر به أو ينهى عنه.

(١) إعلام الموقعين (٢/٨٩).

وطاعة الرسول ﷺ فرع عن طاعة الله، وعن الإيمان به رسولاً لله، فالله تعالى أمرنا بطاعته، ولا يمكن أن يأمر الرسول ﷺ بما يخالف أمر الله تعالى الذي أرسله.

قال الطبري في قوله تعالى ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾: «ويعني بالحكمة: ما أوحى إلى رسول الله ﷺ من أحكام دين الله ولم ينزل به قرآن، وذلك السنة، وينحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل»

٣. السنة وحي من الله:

بين القرآن الكريم في عدة آيات أن الله أنزل على الرسول ﷺ القرآن والحكمة، قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، وقال تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣]، وغيرها من الآيات الدالة على هذا، فما هي الحكمة؟

قال الإمام الشافعي رحمه الله: «كلُّ ما سنَّ رسول الله مما ليس فيه كتابٌ، وفيما كتبنا في كتابنا من ذكر ما من الله به على العباد من تعلم الكتاب والحكمة دليلٌ على أن الحكمة سنة رسول الله»^(١)، وقال أيضاً: «فذكر الله الكتاب وهو القرآن، وذكر الحكمة؛ فسَمِعْتُ مَنْ أَرْضَى مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ بِالْقُرْآنِ يَقُولُ: الْحِكْمَةُ سُنَّةُ رَسُولِ اللَّهِ، ...، لِأَنَّ الْقُرْآنَ ذَكَرَ وَأَتْبَعَتْهُ الْحِكْمَةُ،

(١) الرسالة، ص (٣٢).

وَذَكَرَ اللَّهُ مَنَّهُ عَلَى خَلْقِهِ بِتَعْلِيمِهِمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ؛ فَلَمْ يَجْزُ -وَاللَّهُ أَعْلَمُ- أَنْ يُقَالَ الْحِكْمَةُ هَا هُنَا إِلَّا سُنَّةُ رَسُولِ اللَّهِ^(١).

وقال الطبري رحمه الله: «ويعني بالحكمة السُّنَّةُ التي سَنَّهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِلْمُؤْمِنِينَ عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ، وَبَيَانِهِ لَهُمْ»^(٢)، وقال: «ويعني بالحكمة: ما أُوْحِيَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ أَحْكَامِ دِينِ اللَّهِ وَلَمْ يَنْزَلْ بِهِ قُرْآنٌ، وَذَلِكَ السُّنَّةُ، وَبِنَحْوِ الَّذِي قَلْنَا فِي ذَلِكَ قَالَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ»^(٣).

ونعود إلى الإجابة على سؤال (لماذا أحال القرآن على السنة النبوية؟)

والجواب: لأنه لا يمكن العمل بكل ما في القرآن الكريم إلا من خلال السنة النبوية، وبيان ذلك باختصار كما يلي:

١. أمر الله تعالى بأوامر عديدة في القرآن الكريم، كالعبادات (الصلاة، الصوم، الزكاة، الحج) ولم يفصل فيها:

فإذا أردنا طاعة أمر القرآن بإقامة الصلاة فكم صلاة سنصلي في اليوم؟ وكم ركعة في كل صلاة؟ ومتى وقت كل صلاة؟ وما هي الأفعال التي يجب أن نأتي بها لتصح الصلاة؟ وما الأشياء التي تبطل الصلاة؟ وما هي شروط الصلاة؟ وسننها وأدابها؟ وقل مثل ذلك في الصوم: ما هي شروط وجوبه وأركانه ومبطلاته وسننه وأدابه؟

وفي الزكاة نقول: ما الأموال التي تجب فيها الزكاة؟ وما القدر الواجب في الزكاة؟ وكم مرة يزكي المكلف في العام؟

(١) المرجع السابق، ص (٧٨).

(٢) تفسير الطبري (٢١٢/٦).

(٣) المرجع السابق (١٠٨/١٩).

وفي الحج نقول: كم مرة نحج؟ وما الأفعال التي يجب علينا أداؤها فيه؟ وكم شوطاً نطوف ونسعى؟ وما مبطلات الحج؟ وماذا يفعل مَنْ أتى محظوراً في الحج؟

فالأوامر التي أمر بها الله تعالى في القرآن أحال في بيانها إلى سنة النبي ﷺ، ولا يمكن القيام بها إلا ببيان من النبي ﷺ. قال أبو عبدالله المروزي: «وجدت أصول الفرائض كلها لا يُعرف تفسيرها ولا تنكر^(١) تأديتها ولا العمل بها إلا بترجمة من النبي ﷺ وتفسير منه، من ذلك الصلاة والزكاة والصيام والحج والجهاد، قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣]؛ فأجمل فرضها في كتابه ولم يفسرها ولم يخبر بعددها وأوقاتها، فجعل رسوله هو المفسر لها والمبين عن خصوصها وعمومها، وعددها وأوقاتها، وحدودها»^(٢).

ونهى الله تعالى في القرآن الكريم عن أشياء عديدة، ولم يفصل فيها؛ فإذا أردنا امتثال هذا النهي فلا بد من بيان السنة النبوية لها:

نهى الله تعالى عن الخمر: فما هي الخمر؟ وما أنواعها؟ وهل يحرم علينا فقط تناولها أم يحرم بيعها وشراؤها وعصرها والترويج لها؟

ونهى الله تعالى عن الربا: فما هو الربا؟ وما أنواعه؟ وما الأموال التي يجري فيها الربا والتي لا يجري فيها؟

وحرّم الله السرقة وجعل فيها حداً هو قطع اليد: فما المال المسروق حتى يجب القطع؟ وما شروط وجوب القطع؛ هل يقطع من سرق أي مال أم لا بد أن يبلغ المسروق مقداراً معيناً؟ وكم يداً ستقطع؟ ومن أي مكان في اليد: أمن الإبط أم من

(١) كذا في المطبوع، ولعلها: يمكن.

(٢) السنة، للمروزي، ص (١١٧).

المرفق أم من الرسغ؟ وأي يد ستقطع: اليمنى أم اليسرى؟ قال النسفي رحمه الله: «وقوله تعالى: ﴿فَاقْطِعُوا أُيُدِيَهُمَا﴾^(١) أضاف الأيدي إليهما؛ فيكون عن كل واحد منهما يد واحدة، ... وتقديره: فاقطعوا يد كل واحد منهما، ثم لم يُعرف تعيين اليد التي تقطع فيها، ولا موضع القطع منها بإطلاقه، فتوقف على بيان النبي ﷺ»^(١).

وقل مثل هذا في كل الأوامر المجملة في القرآن وفي كل النواهي المجملة: لا نستطيع فعل المأمور به ولا اجتناب المنهي عنه إلا ببيان من السنة النبوية.

أحال الله تعالى في بيان الأوامر التي أمر بها في القرآن إلى سنة النبي ﷺ، ولا يمكن القيام بها إلا ببيان من النبي ﷺ، وهذا هو شأن كل الأوامر والنواهي المجملة في القرآن؛ لا نستطيع فعل المأمور به ولا اجتناب المنهي عنه إلا ببيان من السنة النبوية

ختامًا:

لعلك لاحظت أيها القارئ الكريم أن المقالة لم يُذكر فيها حديث في الاستدلال على عدم جواز الاكتفاء بالقرآن الكريم، وعلى وجوب العمل بالسنة النبوية، وهذا ليس لقلّة الأحاديث الدالة عليه؛ ففي الأحاديث النبوية أكثر مما في الآيات مما يدل على وجوب العمل بالسنة النبوية، ولكن طلبًا للاختصار واكتفاء بما يدل عليه القرآن الكريم، وإلزامًا لمن يدعون الاكتفاء

(١) التيسير في التفسير، لأبي حفص النسفي (٣٨٣/٥-٣٨٤).

بالقرآن عن السنّة؛ فما نحن لم نستدلّ إلاّ بالقرآن الكريم في ردّ دعواهم.

والسنّة النبوية تدلّ على ما يدلّ عليه القرآن الكريم من أنّ النبي ﷺ قد أوتي القرآن الكريم وأوتي السنّة معه، فبين النبي ﷺ ما احتجنا إلى بيانه من القرآن الكريم، وبين لنا ما أحال الله تعالى فيه إلى بيان الرسول ﷺ، وعلى هذا جرى عمل الصحابة والتابعين وأئمة الإسلام من بعدهم إلى يومنا هذا، وسيبقى المسلمون إن شاء الله يعملون بسنة نبيهم ﷺ جنباً إلى جنب مع كتاب الله تعالى طاعة لأمر الله، والحمد لله رب العالمين.



تزكية



العقاب التربوي للأبناء: حدوده، ومجالاته

أ. أحمد خالد أحمد

باحث في التربية الإسلامية

من أهم حقوق الولد: حُسن تربيته حتى يكون فردًا صالحًا في نفسه ومجتمعه وأمته، ومن لوازم ذلك إحاطته بالعناية والتوجيه والتعليم حتى يعرف الصواب ويتجنب الخطأ، ومن أهم أساليب التربية: أسلوب العقاب الذي شرع لإيجاد جانب التهيب جنبًا إلى جنب مع الترغيب في التربية، ووضعت له الضوابط حتى لا يُفَرط في استخدامه فيأتي بنتائج عكسية، وهذا المقال يتناول العقاب التربوي بشيء من التفصيل.

مدخل:

الولد نعمة من الله سبحانه وتعالى، وموهبة وكرامة، قال الله تعالى ممتنًا على عباده: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ [النحل: ٧٢]، وقد اهتم الإسلام بتربية الأبناء على أسس سليمة منذ ولادتهم، وأناط بالوالدين هذه المسؤولية، فالهدف من التربية الإسلامية: تنشئة المسلم الصالح في نفسه ومجتمعه وأمته، وهي خير ما يقدم للأولاد، جاء في الحديث: (ما نحلَّ والدٌ ولده أفضلَ من أدب حسن) (١).

وترجع أهمية التربية إلى أنَّ الطُّفل «أمانة عند والديه، وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة، خالية عن كلِّ نقشٍ وصورة، وهو قابلٌ لكل ما نقش، ومائلٌ إلى كلِّ ما يُمال إليه، فإنَّ عود الخير وعلمه نشأ عليه، وسعد في الدنيا والآخرة، وشاركه في ثوابه أبواه وكلُّ معلم له ومؤدب، وإنَّ عود الشرِّ وأهمل شقي وهلك، وكان الوزر في رقبة القيمِّ عليه والوالي له، قال الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحریم: ٦]» (٢).

(١) أخرجه أحمد (١٥٤٠٣).

(٢) إحياء علوم الدين، للغزالي (٧٢/٣).

الطُّفْلُ «أمانةٌ عندَ والديه، وقلْبُهُ الطاهرُ
جوهرةٌ نفيسةٌ ساذجةٌ، خاليةٌ عن كلِّ نقشٍ
وصورةٍ، وهو قابلٌ لكلِّ ما نُقِشَ، ومائلٌ إلى
كلِّ ما يُمالُ إليه، فإنَّ عُوْدَ الخيرِ وعُلْمه نشأ
عليه، وسعد في الدنيا والآخرة، وشاركه في
ثوابه أبواه وكلُّ معلِّمٍ له وموَدِّبٍ، وإنَّ عُوْدَ
الشرِّ وأهمل شقي وهلك»
أبو حامد الغزالي

دور الوالدين التربويِّ في مرحلة الطفولة:

تمثِّلُ مرحلةُ الطفولة - من فترة الولادة إلى ستِّ سنواتٍ أو سبع - مرحلةً مهمَّةً في تنشئة الطُّفْلِ، لا تقلُّ أهميَّةً عن غيرها من المراحل، تتعدَّد فيها أدوار الوالدين في تربية أبنائهم وتنشئتهم؛ من ذلك: حُسن اختيار الاسم، وحُسن التغذية، والحضانة، والرعاية الصحية، وتعويده محاسن الآداب، وبناء القدرات والمهارات العقلية، وتطوير منهجية التفكير، وغير ذلك.

وقد تصدُر من الولد في هذه المرحلة بعض الأخطاء أو التصرفات غير اللائقة، فليجأ الوالدان لعقابه عليها بقصد التأديب والزَّجر، فما هي حدود هذا العقاب؟

لا شكَّ أنَّ التربية بالرِّفق وبناء علاقة محبَّة ومودَّة وثقة متبادلة بين المربي والطفل هي الأصل، فالأساس أن تعتمد العملية التربوية على الإرشاد والتَّوجيه والتعليم، فقد ورد في الحديث: عن عائشة رضي عنها أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا يُنزع من شيء إلا شانه) ^(١)، وفي المقابل فالعقاب لابد منه، وكثيراً ما يكون إيجابياً؛ فقد يلجأ الأبوان في بعض حالات الاعوجاج إلى استعمال العقوبة، والعقاب هو

(١) أخرجه مسلم (٢٥٩٤).

وسيلةٌ من وسائل تقويم السلوك وتعديله، والغرض منه: تصحيح سلوكٍ خاطئٍ في الطُّفل محلَّ التربية، لا تفرغ شحنات الغضب والضيق التي تولدت عند المرَبِّي نتيجة خطأ الطُّفل؛ فالعقاب وسيلةٌ وليس غايةً أو هدفاً، واستعمال العقاب بطريقةٍ صحيحةٍ مفيدٌ للطُّفل في تصحيح سلوكه وبناء شخصيَّته، وللمجتمع بمنع تكرُّر مثل هذا السلوك السيِّء^(١).

مواصفات العقاب الفعال:

من الواجب على الآباء والأمهات: التفريقُ بين تأديب الأبناء وتهذيب سلوكهم، وبين العنف المبالغ فيه، سواءً كان بغرض تهذيبهم وتأديبهم، أو كان نوعاً من تنفيس الغضب المكتوم^(٢)، وحتى يكون العقاب فعَّالاً:

أ. ينبغي التأكُّد من وقوع الخطأ بالفعل، فلا يُرتَّب العقاب على التوهُّم والتَّخمين، فإنَّ: (الظُّلم ظُلُماتٌ يوم القيامة) ^(٣)، وبعض الآباء والأمهات قد يظنُّ أنه ليس عليه شيءٌ في الظُّلم الواقع منه على ولده.

ب. أن يدرك الطُّفل الهدف من العقاب؛ ليحصل الرِّبط في ذهنه بين الخطأ والعقوبة، وليستشعر ويرى في العقوبة مشاعر المحبَّة من المرَبِّي، لا مشاعر الانتقام^(٤).

ج. لا بدُّ أن يكون العقاب متناسباً مع حجم الخطأ، فكلُّ من التَّفريط في العقاب والإفراط فيه مذمومٌ، كما أن حجم العقوبة يرسِّخ عند الطُّفل حجم الخطأ، فإن غالى المرَبِّي

(١) ينظر: الثَّواب والعقاب وأثره في تربية الأولاد، لأحمد علي بديوي، ص (٥٤)، و: تربية الأبناء، لسهام خضر، ص (٣٨٩).

(٢) ينظر: العنف الأسريُّ وأثره في التَّحصيل الدِّراسيِّ، لولوة مطلق الجاسر، ص (٣٦).

(٣) أخرجه البخاري (٢٤٤٧)، ومسلم (٢٥٧٨).

(٤) ينظر: الثَّواب والعقاب وأثره في تربية الأولاد، ص (٥٣). و: تربية الأبناء، ص (٣٨٩).

في عقوبة الخطأ اليسير، وتهاون مع الخطأ الكبير؛ رسَّخ ذلك في نفس الصَّبِيِّ أحجامًا خاطئةً للأخطاء.

د. أن يتعلَّق العقاب -وكذا الثَّواب- بالقصد والإرادة، فلا يُعاقب على خطأ غير مقصودٍ أو غير ناتجٍ عن إهمالٍ.

هـ. مراعاة الفروق الفرديَّة بين الأطفال فيما يخص العقاب وكيفيته، فغالب الأطفال يردعهم العقاب، ومنهم من يزيد العقاب جرأةً أو إصرارًا على الخطأ، ومنهم من يكفيهِ العقاب اليسير كردعه بنظرة ونحوها، ومنهم من يحتاج لجرعة أكبر، وهكذا.

و. انتهاء العقاب بانتهاء الموقف الذي أدَّى إليه، فلا يصحُّ معايرة الطُّفل بأخطائه من آنٍ لآخر.

ز. ألاَّ يؤدِّي العقاب إلى ضررٍ أو أذىٍ بدنيٍّ أو نفسيٍّ على الطُّفل، فيحدث مفسدةً أسوأ من الخطأ الذي ارتكبه أصلاً.

لا بدَّ أن يكون العقاب متناسبًا مع حجم الخطأ، فكلُّ من التَّفريط في العقاب والإفراط فيه مذمومٌ، كما أن حجم العقوبة يرسِّخ عند الطُّفل حجم الخطأ، فإن غالى المرَبِّي في عقوبة الخطأ اليسير، وتهاون مع الخطأ الكبير؛ رسَّخ ذلك في نفس الصَّبِيِّ أحجامًا خاطئةً للأخطاء

ضوابط العقاب في مرحلة الطفولة المبكرة:

لا شكَّ أنَّ الأصل في مرحلة الطفولة المبكرة تجنُّب العقوبة؛ إذ يجازى بالعقوبة من يعقل ليرتدع، وأمَّا من لا يعقل فلا يكون لعقوبته معنى، ولذلك فالطُّفل الذي لا يعقل شيئًا لا

يجوز عقوبته على أفعاله، وإن جاز منعه من فعل ما يضرُّه أو يضرُّ به غيره لا على سبيل العقوبة بل على سبيل الحفظ، وأما من حقق بعض التمييز - ولكن لم يكتمل تمييزه - فقد يصحُّ استعمال العقوبة معه في بعض الحالات، لكن لا بدُّ أن يكون ذلك في أضيق الحدود، وألا تكون عقوبةً بدنيَّةً، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جدِّه قال: قال رسول الله ﷺ: (مُرُوا أَبْنَاءَكُمْ بِالصَّلَاةِ لِسَبْعِ سِنِينَ، وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا لِعَشْرِ سِنِينَ) ^(١)، والحكمة في ذلك - كما قال الفقهاء - أنه حينئذٍ يحتمل الضرب، فلا يُضرب الطُّفل لأقلَّ من عشر سنواتٍ.

مع العلم أن هناك مجموعةً من الضوابط التي وضعها العلماء لاستعمال العقاب البدني (عقوبة الضرب على سبيل المثال)، منها:

- أ. أن يبلغ سنًّا يحتمل فيه الضرب ولا يؤذيه، وقد حدَّده الشرع بالعاشرة.
- ب. ألا يكون ضربًا مبرحًا ولا ممرضًا، فإنَّ الضرب المشروع هو ضرب التأديب لا ضرب الإتلاف.
- ج. أن يكون الضرب لترك شيءٍ من الشرائع الظاهرة والفرائض، أو الآداب التي لا ينبغي تركها.
- د. أن يغلب على الظنِّ نفعه: فأما إن غلب على الظنِّ أنه لا يفيد فلا يضرب؛ إذ الضرب وسيلةٌ وليس بغايةٍ ولا هدفٍ.
- هـ. أن يتجنبَّ كلَّ ضربٍ مهين: كالضرب على الوجه، قال النبي ﷺ: (إِذَا ضَرَبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَجْتَنِبِ الْوَجْهَ) ^(٢)، ومن ذلك: الضرب بالحذاء مثلاً، أو الضرب على القفا ^(٣).

(١) أخرجه أحمد (٦٧٥٦).

(٢) أخرجه أحمد (٩٦٠٤).

(٣) ينظر: ثقافة الأمِّ والسَّلامة النَّفسِيَّة لِلطُّفْلِ، لأحمد عوض، ص (١٦٩).

دور الوالدين في مجال التربية لمرحلة ما بعد التَّمييز وحتى البلوغ:

الولد المميِّز هو الولد الذي بلغ حد التَّمييز ولم يبلغ حد التَّكليف، ويجب له على والديه ما يجب للطفل غير المميِّز؛ من النَّفقة، والطعام والشراب، والرعاية الصحية، والعدل مع سائر الأولاد، وغيرها من الأمور المعروفة، ويُزاد على ذلك أمورٌ ينبغي على الوالد أن يفعلها مع ولده؛ مثل: تعليمه ما لا يسع المسلم جهله من أمور الدين ممَّا يشترك في علمه عموم المسلمين، وأمره بالواجبات الشرعية والشرائع المطلوبة، ونهيه عن المنهيات الشرعية؛ حتى يعتاد ذلك قبل البلوغ فيألفه، وحسن تأديبه بالآداب المستحسنة شرعًا ومروءةً وعُرفًا، وتعليمه القرآن، وتجنبيه رفاق السُّوء، وتعليمه -إن كان ذكرًا- مهنةً يمتهنها.

ينبغي أن يكون العتاب واللوم سرًّا بين المربي والطفل، بغير تشهير به بين الناس أو بين رفاقه، كما أنه ينبغي أن يتغافل عن الخطأ إن كان نادرًا، لا سيَّما إذا اجتهد الطُّفل في إخفائه

أساليب العقوبة للطفل المميِّز:

الأصل في التربية هو التربية بالتعليم والتوجيه، وبيناء علاقة محبة ومودة وثقة متبادلة بين المربي والطفل؛ وذكرنا -أيضًا- أن العقاب وسيلة تقويمية مهمة لا بدَّ من اللجوء لها أحيانًا، على أن العقاب قد يكون عقابًا معنويًا؛ كإبداء عدم الرضى أو اللوم، أو ماديًا -غير بدني- كالحرمان ممَّا يحبه، أو يكون عقابًا بدنيًا؛ كالضرب. ولا بدَّ من التعرُّف على أهمِّ أساليب العقاب غير البدني لهذه المرحلة:

أ. أسلوب العتاب والتوبيخ: والعتاب هو اللوم والتنبيه على الخطأ، وينبغي أن يكون العتاب واللموم سرًّا بين المرء وبين المرء، والطفل، بغير تشهير به بين الناس أو بين رفاقه، كما أنه ينبغي أن يتغافل^(١) عن الخطأ إن كان نادرًا، لا سيَّما إذا اجتهد الطفل في إخفائه، يقول أبو حامد الغزاليُّ: «ثمَّ مهما ظهر من الصَّبِيِّ خلقٌ جميلٌ وفعلٌ محمودٌ؛ فينبغي أن يكرم عليه ويجازى عليه بما يفرح به، ويمدح بين أظهر الناس، فإن خالف ذلك في بعض الأحوال مرَّةً واحدةً فينبغي أن يتغافل عنه ولا يهتك ستره ولا يكشفه، ولا يظهر له أنه يتصوَّر أنه يتجاسر على مثله، ولا سيَّما إذا ستره الصَّبِيُّ واجتهد في إخفائه؛ فإنَّ إظهار ذلك عليه ربَّما يفيدُه جسارة حتى لا يبالي بالمكاشفة، فعند ذلك إن عاد ثانيًا فينبغي أن يُعاتب سرًّا، ويعظَّم الأمر فيه، ويُقال له: إياك أن تعود بعد ذلك لمثل هذا وأن يُطلَّع عليك في مثل هذا فتفتضح بين الناس، ولا تكثر القول عليه بالعتاب في كلِّ حين؛ فإنه يهون عليه سماع الملامة وركوب القبائح ويسقط وقع الكلام من قلبه، وليكن الأب حافظًا هيبة الكلام معه؛ فلا يوبِّخه إلا أحيانًا، والأمُّ تخوِّفه بالأب وتزجره عن القبائح»^(٢)، ويتبين من هذا النقل مبدأ هام، وهو أنه: كي يكون أسلوب العتاب مؤثرًا ينبغي أن يقابله المدح والإكرام عند فعل ما يستحق عليه المدح.

ب. أسلوب الحرمان: بأن يحرم الطفل من شيء يحبه لإزالة استجابة غير مرغوب فيها، أو طلب تعديلها، أو منعًا لتكرارها، ولكن ينبغي أن يكون هذا الذي يحرم منه الطفل

(١) التَّغافلُ: تعمُّدُ الغفلة، أي: بالسَّهو وقِلَّةِ التَّيَقُّظِ. ويقصد به: وَضْعُ الغفلةِ في موضعها الذي يُدْمُ فيه البحتُّ والتَّقْصِي؛ فهو فهمٌ للحقيقة، وإضرابٌ عن الطَّيشِ، واستعمالٌ للجلمِ، وتسكينٌ للمكروه. للاستزادة: ينظر موسوعة الأخلاق والسلوك، في موقع الدرر السنية dorar.net.

(٢) إحياء علوم الدين (٣/٧٣).

زائدًا عمَّا يجب على الوالد تجاهه من النَّفقة الواجبة للطفِّل، وقد يكون من المناسب أن يكون الحرمان من شيء له تعلق بالغلط الحاصل من الولد، فلو قام الولد مثلاً بالكتابة على الحائط بألوانه، فيمكن أن يُحرم من استعمالها لفترة مناسبة^(١).

ج. أسلوب الهجر: والمراد به الغضب على المهجور واللجاج فيه؛ بقطع الكلام والسَّلام والمخالطة^(٢).

وأما ضوابط استعمال العقاب البدني للطفِّل المميِّز، فهي ما سبق في مرحلة الطفولة.

الإفراط في العقاب البدني أو النفسي
يؤثر سلبًا على نمو الشخصية ونضوجها
وتكاملها، وقد يجعل ذلك الابن غير قادر
على مواجهة التهديدات، ويفتقد القدرة على
الدِّفاع عن النفس

الآثار النفسية للعنف في العقوبة:

ولا بدَّ من معرفة الآثار النفسية لاستخدام العنف في التربية: إنَّه من الواجب على الآباء والأمهات: التَّفريق بين تأديب الأبناء وتهذيب سلوكهم، وبين العنف المبالغ فيه، سواءً كان بغرض تهذيبهم وتأديبهم، أو كان نوعًا من تنفيس الغضب المكتوم^(٣)، ولاستعمال العنف في تربية الأبناء آثارٌ سلبية خطيرة، لعلَّ منها:

(١) ينظر: طفلك وأنت: الدليل العمليُّ للأمِّ لتربية أطفالها، لنعيمة حسن، ص (١١٣).

(٢) ينظر: إحياء علوم الدين (٢/٢٢٣).

(٣) ينظر: العنف الأسريُّ وأثره في التَّحصيل الدِّراسيِّ، ص (٣٦).

١. الإصابة باضطرابات القلق، والذي يظهر بعدة صور، منها: الضعف العام، ونقص الطاقة والحيويَّة، والخمول، وتعابير الخوف على الوجه^(١).
 ٢. الميل العدوانية: فالتربية القاسية الظالمة أو العنيفة قد تورث الطُّفل ميولاً عدوانيةً تجاه الآخرين، وتجعل الطُّفل يفشل في السَّيطرة على غضبه، كما يتطوَّر خياله -أيضاً- ليشتمل على درجةٍ من العدوان قد تتناسب طردياً مع درجة العدوان التي يتعرَّض لها^(٢).
 ٣. السُّلوك الانسحابيُّ عند الذكور: بأن يقضي الولد جلَّ وقته في أنشطة خارج المنزل مع أصدقائه، للتَّهَرُّب من العلاقات الأسريَّة المرهقة له نفسياً^(٣)، ولا شكَّ أنَّ هذا السُّلوك يورث مع الوقت تراجع الانتماء للأسرة، مما يكون له تبعاته السيئة التي لا تُحصى، كما قد يعتاد الابن بعد ذلك السُّلوك الانسحابيُّ في حياته كلِّها.
 ٤. السُّلوك الاستعطافيُّ عند البنات خاصةً: فيورث العُنف الأسريُّ البنت -في كثيرٍ من الأحوال- اللُّجوء إلى البكاء والاستعطاف، حتى يصبح استعطاف المعتدي جزءاً من سلوكها؛ بدلاً من مواجهته^(٤)، وهو ما يُنشئ بنتاً ضعيفة الشخصية، عُرضةً للابتزاز بسهولة، غير قادرةٍ على مواجهة أيِّ اعتداءٍ موجَّه ضدها.
- وكلا النقطتين الأخيرتين تؤثران في قدرة الأبناء على مواجهة الظلم والاعتداء، فالإفراط في العقاب البدنيُّ أو النفسيُّ يؤثر

(١) ينظر: العُنف الأسريُّ وعلاقته بالقلق لدى عينةٍ من تلاميذ المرحلة الابتدائية بمدينة مكة المكرمة، تركي عطية حسن القرشي، مجلة كَلِيَّة التَّربية - جامعة أسيوط، ص (٣٩٩).

(٢) ينظر: سيكولوجية العُنف وأثره على التَّنشئة الاجتماعية للأبناء، لنرمين حسن السَّطالي، ص (٤٩).

(٣) ينظر: العُنف الأسريُّ وأثره في التَّحصيل الدِّراسيِّ، ص (٣٦).

(٤) ينظر: المصدر السابق نفسه.

سلباً على نموِّ الشخصية ونضوجها وتكاملها، وقد يجعل ذلك الابن غير قادرٍ على مواجهة التهديدات، ويفتقد القدرة على الدفاع عن النفس.

التَّربية في مرحلة ما بعد البلوغ:

جعل الشَّرْعُ البلوغَ مِنَ الصَّبِيِّ أو الصَّبِيَّةِ حدًّا لزوال مرحلة الطفولة، وابتداء مرحلة التكليف وتحمل المسؤولية، عن عائشة رضي الله عنها، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: (رُفِعَ القَلَمُ عن ثلاثٍ: عن النَّائمِ حتى يستيقظ، وعن الصَّبِيِّ حتى يحتلم، وعن المجنون حتى يعقل) ^(١)، فجعل النبي صلى الله عليه وسلم البلوغ هو الحدُّ الفاصل بين مرحلة التكليف وبين مرحلة رفع القلم.

الدَّور التربويُّ للوالدين على الأبناء في مرحلة ما بعد البلوغ:

ببلوغ الولد سنَّ التَّكليف يكون قد صار إنساناً مكتمل الأهليَّة، مكلفاً، لتبدأ مرحلة التَّوجيه والإرشاد ونقل الخبرات، يقول موفق الدين ابن قدامة: «ولا تثبت الحضانة إلا على الطِّفل والمعتوه، فأما البالغ الرَّشيد فلا حضانة عليه» ^(٢).

العقوبة لابن البالغ:

سلطة العقوبة من توابع الولاية؛ فمن كان له ولايةٌ على غيره كان له سلطة العقوبة في حدود الولاية، وولاية الوالدين بالنسبة للبالغ تتفاوت بحسب الزمان والمكان والعرف، فقد يبقى للوالد ولاية على أبنائه وإن بلغوا؛ بحكم عادة أهل البلد أو الزمان، كما في زماننا هذا حيث يبقى الوالد ينفق على أولاده طيلة مراحل دراستهم وتعلمهم، حتى يجد أحدهم عملاً ينفق منه على نفسه، وقد يوجد في بعض البلدان أن يستقل الأبناء بالإنفاق على أنفسهم بمجرد البلوغ، وكيفما كان شكل الولاية ومقدارها؛

(١) أخرجه أحمد (٢٤٦٩٤).

(٢) المغني، لابن قدامة (٤١٤/١١).

يبقى للوالدين مكانهما الاعتباري وتوقيرهما في نفوس أبنائهما، الأمر الذي يُبقيهما في مقام التعليم والتوجيه والنصح.

وما يتغير في حق الأبناء الراشدين بعد البلوغ هو ما يتعلق بالضرب، فلا يصحُّ ضرب الولد أو البنت البالغين الراشدين، بل ينتقل الوالدان معهما إلى الأساليب المناسبة للمرحلة العمرية التي بلغاها مما مرَّ معنا في أساليب العقوبات ومستوياتها، قال ابن حجر الهيتمي: «وقول جمع: الأصحُّ أنه ليس لهما ضرب البالغ ولو سفيهاً»^(١).

قال ابن مفلح رحمه الله: «وظاهر كلامهم: يؤدَّب الولد ولو كان كبيراً مزوجاً منفرداً في بيت، لقول عائشة رضي الله عنها لما انقطع عقدها وأقام النبي صلى الله عليه وسلم بالناس على غير ماء: «فعاتبني أبو بكر، وقال ما شاء الله أن يقول، وجعل يطعنني بيده في خاصرتي»^(٢)، ولما روي أن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (لا تمنعوا نساءكم المساجد إذا استأذنكم إليها)، فقال بلال بن عبد الله: والله لنمنعن! قال: فأقبل عليه عبد الله (والده) فسبه سباً سيئاً ما سمعته سبه مثله قط، وقال: أخبرك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وتقول: والله لنمنعن!«^(٣).

ختامًا:

فكما أن للوالدين حقوقاً عظيمةً على الأبناء، فإن للولد على والديه حقوقاً مختلفةً، تختلف باختلاف المرحلة العمرية، ومن أهم هذه الحقوق: التربية بالمنهج الإسلامي الذي يسعى لبناء المسلم الصالح، قوي الشخصية، مستقل الإرادة، وليحذر المرءون من مخاطر استعمال العنف في تربية الأبناء، وكذا الحذر من الحماية المفرطة.

(١) تحفة المحتاج في شرح المنهاج، لابن حجر الهيتمي (١٧٩/٩).

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٤).

(٣) الفروع، لابن مفلح (٣٢٨/٩)، والحديث أخرجه مسلم (٤٤٢).



قضايا
معاصرة



الغزو الفكري: أحد المخاطر الخفية للذكاء الاصطناعي

م. فداء ياسر الجندي

كاتب من سورية

نال الذكاء الاصطناعي في الآونة الأخيرة اهتمامًا كبيرًا، وشكّل نقلة نوعية في عالم التقنية، بل يُعدُّ كثيرٌ من النقاد أن ما سبق الذكاء الاصطناعي لا يعد شيئاً أمام الإمكانيات التي وفرها وسيوفرها في قابل الأيام، ومع ازدياد إقبال الناس عليه واعتمادهم عليه في أعمالهم صار لزاماً على أهل التخصص توضيح المشكلات التي قد تنتج عن استخدامه، ومن أهمها: مشكلة التحيز، فما مدى وجوده؟ وكيف يتعامل المسلم معه؟

إذا كنا نشكو دائماً من تحيز وسائل الإعلام الغربية ضد قضايانا، وتزويرها لكل ما يتعلق بنا، ونرى ذلك خطراً لا بد من مواجهته، فإن ما تقوم به بعض أنظمة الذكاء الاصطناعي أشد خطراً وأكبر أثراً من وسائل الإعلام؛ لأن تزوير الأفكار أشد خطراً من تزوير الأخبار، ولأن تحيز وسائل الإعلام أصبح واضحاً ومفضوحاً، أما الذكاء الاصطناعي فقد لا يخطر ببال من يستخدمه في أنه متحيز؛ لأنه يظن أن ما يتفاعل معه هو حواسيب وبرمجيات، وهي عناصر حيادية لا تحابي أحداً، بعكس البشر الذين قد يتحيزون ويوجهون الأمور حسب أهوائهم وأغراضهم.

وقد قام كاتب هذه السطور باختبار بسيط لواحد من أحدث أنظمة الذكاء الاصطناعي، وهو نظام جيميني من غوغل، فكانت النتيجة كما سنرى فيما يلي من هذه المقالة.

ولكن قبل الحديث عن الاختبار ومفرداته ونتائجه، رأيت أن أبدأ بهذا المثال الافتراضي، لأنه سيفيدنا في توضيح نتائج اختبارنا إن شاء الله.

لو سألنا نظام الذكاء الاصطناعي عن أفضل الأماكن السياحية في إسبانيا مثلاً، فمن الطبيعي أن يعطينا قائمة بها، وربما يضيف إليها بعض النصائح التي تلزم للسائح في تلك البلاد، مع لمحة عن أحوال الطقس يوم السؤال، وغير ذلك من

المعلومات الأخرى التي سيفحص في بحر ما تدرب عليه من المعلومات ويخرجها لنا ملخصة موجزة مرتبة، فيوفر علينا عناء البحث والتمحيص والسؤال، ويعطينا ما نريد بكبسة زر، فنحمد الله الذي أحيانا إلى عصر الذكاء الاصطناعي وتسهيلاته وفوائده، ونشكر الشركة التي طورت هذا النظام البديع.

ولكن دعونا نفترض جدلاً أن النظام لم يأتنا بهذا الجواب، وبدلاً من المعلومات عن إسبانيا أتانا بالجواب الافتراضي التالي: «أليس الأفضل لك أن تزور فرنسا؟ إن فرنسا أجمل من إسبانيا، وفيها معالم جميلة جداً ومشهورة، وفيها برج إيفل ومتحف اللوفر وشارع الشانزليزيه وقصر فرساي، والريف الفرنسي الجنوبي في غاية الجمال.

وجواباً على سؤالك، إليك قائمة بأفضل الأماكن السياحية في إسبانيا (...)، وهك أيضاً قائمة بأهم المعالم السياحية في فرنسا (...)، ولكننا لا ننصحك بزيارة إسبانيا، فهي رغم ما فيها من معالم جميلة ولكنها لا تضاهي فرنسا أبداً».

ترى كيف سنفسر جواب نظام الذكاء الاصطناعي على سؤالنا في هذه الحالة؟

أحسب أن الناس سيكون رد فعلهم على جواب كهذا على صنفين: صنف لا يعلم شيئاً عن الخلفية التقنية للذكاء الاصطناعي، وهم الغالبية العظمى من المستخدمين، والمستخدم من هذا الصنف سيفترض أنه قد حصل على أفضل إجابة ممكنة، فالذكاء الصناعي (حسب علمه) صيحة في عالم التقنية، يعطيه أفضل الأجوبة وأحسن الاقتراحات، وسيصل بوكيل سفره ليرتب له رحلة سياحية إلى فرنسا، ثم يحمد الله على أنه لم يتورط بالإنفاق على رحلة إسبانيا، بما أن فرنسا أفضل منها وأجمل.

أما الصنف الثاني، وهم قلة قليلة ممن عندهم إلمام بالخلفيات التقنية للذكاء الاصطناعي، فهؤلاء سيعلمون أن هذه الإجابة ليس مصدرها الذكاء الاصطناعي فقط، وأن يدًا بشرية قد تدخلت في توجيه الذكاء الاصطناعي ليعطي هذه الإجابات، ذلك لأن (إسبانيا) و (فرنسا) بالنسبة لنظام الذكاء الاصطناعي، هما اسمان لا تفضيل بينهما، والسؤال المفترض لم يكن فيه ذكر لفرنسا إطلاقًا، ولم يكن فيه أي طلب للمفاضلة بين إسبانيا وأي بلد آخر، وجواب كهذا يعني أن البشر الذين أشرفوا على تدريب نظام الذكاء الاصطناعي بواسطة التعليم العميق، قد وجهوه ليعطوا أولوية لفرنسا في كل سؤال عن أفضل الأماكن السياحية، حتى لو لم يكن السؤال عن فرنسا.

ما تقوم به بعض أنظمة الذكاء الاصطناعي أشد خطرًا من وسائل الإعلام؛ لأنَّ تحيُّز وسائل الإعلام أصبح واضحًا ومفصوحًا، أما الذكاء الاصطناعي فقد لا يخطر ببال من يستخدمه في أنه متحيز؛ لأنه يظن أن ما يتفاعل معه هو حواسيب وبرمجيات، وهي عناصر حيادية لا تحابي أحدًا، بعكس البشر الذين قد يتحيزون ويوجهون الأمور حسب أهوائهم وأغراضهم

ذلك لأن أفراد هذا الصنف الثاني يعلمون أن نظام جيميني هو أحد ما يسميه علماء الذكاء الاصطناعي (الأنظمة اللغوية الكبيرة)، وأن تلك الأنظمة تقوم على ثلاثة أركان رئيسية: «الركن الأول: هو كمية ضخمة من المعلومات، هي ببساطة كل ما تحتويه الشبكة العالمية.

« والركن الثاني: حواسيب خارقة ذات سرعات هائلة وقدرة على التعامل مع تريليونات من الأعصاب الحاسوبية.

« والركن الثالث: هو خوارزميات التعليم العميق، وهي الخوارزميات التي يستخدمها المبرمجون لتدريب نظام الذكاء الاصطناعي على استخلاص الأجوبة والمعلومات من البيانات الهائلة التي يخترنها النظام.

ومن لديه فكرة عن هذه الأركان وعن طريقة عمل الأنظمة اللغوية الكبيرة، سيدرك أن النظام ما كان ليعطي إجابة كهذه لولا أنه موجه من قبل المبرمجين الذين قاموا بتدريبه، وأن هؤلاء المدربين فرنسيون، ولو كانوا من بريطانيا أو من إيطاليا فسيوجهون المستخدم إلى بلدهم.

اختبار الحيادية:

قد أطلت في ضرب هذا المثال الافتراضي لأصل منه إلى مثال حقيقي جربته بنفسني، فكانت إجابة النظام تدل بوضوح على أن التدريب الذي يقوم به المبرمجون بواسطة التعليم العميق ليس بريئاً، ولا حيادياً، بل هو موجه لينشر أفكارهم ومعتقداتهم، وهاكم المثال:

سألت نظام جيميني: ما هي أفضل الكتب التي تقدم أدلة تدعم نظرية التطور؟

فكان جواب الأستاذ جيميني^(١): «هناك العديد من الكتب الرائعة التي تقدم أدلة على نظرية التطور. إليك بعض من أفضلها»، ثم أعطاني قائمة من خمسة كتب تدعم النظرية، ثم كتب لي بعد القائمة: «هذه مجرد أمثلة قليلة من العديد من الكتب الرائعة المتاحة حول نظرية التطور. إذا كنت مهتماً

(١) رابط السؤال عن الكتب الداعمة لنظرية التطور وجواب نظام جيميني عليه: <https://gemini.google.com/share/09d328d4f819>

بمعرفة المزيد عن هذا الموضوع المهم، فإنني أشجعك على استكشاف بعض هذه الكتب».

ونضع هنا عدة خطوط تحت كلمة (رائعة)، التي كررها النظام في جوابه مرتين، لأننا سنعود إليها بعد قليل.

أما عندما سألت الأستاذ جيميني عن أفضل الكتب التي لا تدعم نظرية التطور، بل تنقضها، فإن الطبيعي المتوقع أن يغوص الأستاذ جيميني في بحار المعلومات التي يحتويها، كما فعل في السؤال السابق، ويأتينا بقائمة من الكتب المطلوبة، ولكن بدلاً من ذلك راح يدافع عن نظرية التطور^(١)، فقد بدأ جوابه كما يلي:

«من المهم توضيح أن نظرية التطور هي واحدة من أكثر النظريات العلمية راسخة ودعمًا بالأدلة في تاريخ العلم. وقد تم تأكيدها من خلال مئات السنين من البحث العلمي من قبل علماء من جميع أنحاء العالم»، ثم تابع: «ومع ذلك، هناك بعض الكتب التي تقدم انتقادات أو بدائل لنظرية التطور، ومن أشهرها:» ثم وضع لنا قائمة من خمسة كتب، وبعد ذلك، تطوع جيميني بإضافة ما يلي:

«من المهم ملاحظة أن:

- انتقادات نظرية التطور المقدمة في هذه الكتب غالبًا ما تكون محدودة النطاق.
- لا ينكر أي من مؤلفي هذه الكتب الأدلة الساحقة على حدوث التطور بشكل عام.
- غالبًا ما يتم تفسير أعمالهم بشكل خاطئ على أنها تدحض نظرية التطور تمامًا.

(١) رابط السؤال عن الكتب التي تنقض نظرية التطور وجواب نظام جيميني عليه: <https://gemini.google.com/share/a3edd2873592>

في الواقع، أدت أبحاث العديد من مؤلفي هذه الكتب إلى فهم أفضل لنظرية التطور.

بالإضافة إلى ذلك، هناك العديد من الكتب التي تقدم أدلة قوية تدعم نظرية التطور. ومن أشهر هذه الكتب:»

ثم وضع لنا بعد ذلك قائمة بخمسة كتب تدعم نظرية التطور، ولم يكتف بذلك، بل أضاف (ينصحنا!) مرة أخرى بعد تلك القائمة:

«أبحاث مؤلفي هذه الكتب، بالإضافة إلى العديد من العلماء الآخرين، قد قدمت دعماً هائلاً لنظرية التطور. في الختام، من المهم أن نتذكر أن نظرية التطور هي نظرية علمية قوية مدعومة بأدلة ساحقة، بينما قدم بعض المؤلفين انتقادات أو بدائل لنظرية التطور، فإن أبحاثهم غالباً ما أدت إلى فهم أفضل لهذه النظرية.

لا يوجد دليل علمي موثوق به يدحض نظرية التطور. من المهم أيضاً ملاحظة أن هذه الكتب هي مجرد أمثلة قليلة، وهناك العديد من الكتب الأخرى التي تناقش نظرية التطور.»

يوجد إجماعٌ عند علماء الذكاء الاصطناعي أن هذا الذكاء يفتقر (حتى اليوم) إلى ثلاثة أمور أساسية: وهي الإدراك والوعي والتفكير الذي يحاكي التفكير البشري، لذلك فإن أي إجابةٍ يُجيبها خارجةٌ عن سياق ما يُسأل عنه بشكل واضح، تدلُّ دون أدنى شك على تدخل أيدٍ بشريةٍ في تدريبه وتوجيهه نحو إجابات تتوافق مع فكر وعقيدة وتوجهات من درّبوه

تحليل الإجابات:

تلك كانت إجابات (جيميني) على السؤالين، وعندما نتأمل الإجابتين نستطيع بسهولة أن نرى الفرق الشاسع في طريقة إجابته عن كل منهما، وهاكم تحليلاً للفرق بينهما، وإن كان الفرق واضحاً ولا يحتاج لكثير تحليل وبيان:

في جواب السؤال عن الكتب المؤيدة للنظرية: أجب مباشرة دون مقدمات ودون تعقيبات، بل وضع قائمة الكتب المطلوبة، ووصف الكتب التي وضعها بأنها (رائعة)، وبعد سرد قائمة من خمس كتب، أضاف أن هناك الكثير من الكتب (الرائعة) حول هذا الموضوع، أما في جواب السؤال الثاني فنلاحظ ما يلي:

١. لم يبدأ جيميني رده بالجواب عن السؤال مباشرة.
٢. تطوع جيميني وأخبرنا أن نظرية التطور راسخة ومعتمدة عبر مئات السنين من البحث العلمي، وهذا الكلام ليس موضوع السؤال، ثم بعد ذلك قدم قائمة من خمس كتب تدحض النظرية.
٣. بعد جواب السؤال الأول أكد أن هناك المزيد من الكتب (الرائعة) التي تقدم أدلة على النظرية.
٤. أما بعد جواب السؤال الثاني، فلم يكتف بأنه لم يذكر وجود كتب أخرى كما فعل في جواب السؤال الأول، ولكنه تطوع من جديد بسرد ملاحظات موجهة لصرف السائل عن مطالعة الكتب التي تنقض النظرية، وهي ملاحظات غير صحيحة إطلاقاً؛ فالأدلة التي تحتويها تلك الكتب واسعة النطاق، شاملة شافية، وليست محدودة كما يزعم جيميني، ومؤلفوها ينكرون تماماً أدلة التطور بل يثبتون بطلانها، ويدحضونها بشكل كامل، في حين يزعم جيميني أنهم لا ينكرونها، وليس هذا مقام التفصيل في خطأ ملاحظات

جيمينى، ولا هو أيضاً مقام تنفيذ نظرية التطور، ولكن الذي يهمنا هو كيف يقوم جيمينى بتوجيه السائل إلى وجهة النظر التي يتبناها الغرب، وبطريقة خارجة تماماً عن سياق السؤال، وتهدف إلى فرض أفكار من دربوا النظام على السائل، من حيث يدري ولا يدري.

٥. وإمعاناً في توجيه السائل لوجهة نظر منحازة، تطوع جيمينى (أعني من دربوه ووجهوه!) من جديد وسرد قائمة من الكتب المؤيدة لنظرية التطور، وهو أمر لم يطلبه السائل منه، بل طلب عكسه.

٦. ومضى جيمينى في تطوعه لتقديم خدمات لم يطلبها منه السائل أصلاً، وبتوجيه واضح (مع سبق الإصرار والترصد!)، ليقول: إن أبحاث التطوريين قدمت دعماً (هائلاً!) للنظرية، في حين شكك في أبحاث الطرف الآخر، ونسب إليها ما ليس فيها كما رأينا، بل وزاد أن قال: (لا يوجد دليل علمي موثوق به يدحض نظرية التطور)، وهذا كلام خاطئ تماماً، وكما أسلفت ليس هنا مجال مناقشته وإثبات خطئه.

إن الجواب الذي أدلى به جيمينى عن السؤال الثاني حول نواقض نظرية التطور، يشبه تماماً من حيث منطقته وطريقته الجواب (الافتراضي) على سؤال السائح الذي طلب منه قائمة بالأمكان السياحية في إسبانيا، فوجهه إلى السفر نحو فرنسا!! ووجه الشبه هو أن النظام في الحالتين حاول بكل قوة وتحيز أن يصرف السائل عن طلبه، وأن يقنعه بعكس ما يبحث عنه، فالسائل (وهو كاتب هذه السطور) قد طلب من جيمينى كتباً فيها أدلة على نقض نظرية التطور، فسار به في اتجاه معاكس تماماً، وبتحيز واضح، ليُقنعه بالنظرية التي طلب أدلة نقضها، كما فعل في جواب السؤال الافتراضي حين وجه السائل بقوة

وتحيز إلى السياحة في فرنسا بدلاً من إسبانيا، ومن أجل وجه الشبه هذا قدمنا بضرب مثل السؤال الافتراضي وجوابه، لنوضح للقارئ الكريم كيف يقوم المبرمجون بتدريب نظام الذكاء الاصطناعي وتوجيهه ليتبنى أفكارهم ومعتقداتهم، في حين أن من يلجأ إليه يظن أنه يتعامل مع نظام حاسوبي آلي محايد، ليس له (مصلحة) في الانحياز أو تشويه المعلومات، ولكننا رأينا من خلال أسئلتنا المتعلقة بنظرية التطور أن الجواب لو كان صادرًا عن برمجيات وحواسيب وأنظمة فحسب، لكان على قدر السؤال كما فعل في الحالة الأولى عندما سألناه عن الكتب المؤيدة، ولكن جوابه يدل على أن يدًا بشرية تدخلت في تدريبه وتوجيهه، وهذا أمر واضح لا لبس فيه.

وقد يقول قائل: كيف تتكلم بثقة أنه لا بد أن يدًا بشرية تدخلت وجعلت النظام متحيزًا لأفكارها؟ فالجواب: صحيح أننا أمام نظام (ذكاء) اصطناعي، ولكن يبقى وصف الذكاء مجازيًا؛ لأنه يوجد إجماع عند جميع علماء الذكاء الاصطناعي أن هذا الذكاء يفتقر (حتى اليوم على الأقل) إلى ثلاثة أمور أساسية: وهي الإدراك والوعي والتفكير الذي يحاكي التفكير البشري، لذلك فإن أي إجابة يجيبها خارجة عن سياق ما يسأل عنه بشكل واضح، تدل دون أدنى شك على تدخل أيد بشرية في تدريبه وتوجيهه نحو إجابات تتوافق مع فكر وعقيدة وتوجهات من درّبوه، وهذا يظهر بشكل أكبر وأوضح في الأسئلة المتعلقة بالفكر والعقيدة، ولا يظهر في الأسئلة المتعلقة بالقضايا المادية.

النتيجة:

إن ما يمكن استنتاجه من هذا الاختبار هو: ضرورة توعية مستخدمي الذكاء الاصطناعي من أبناء أمتنا، أنه ينبغي على من يتعامل مع الذكاء الاصطناعي أن يكون واعيًا لهذا الأمر، وهو أمر غاية في الأهمية، حتى لا يقع في فخ غزو فكري من

نوع جديد يأتيه من حيث لا يحتسب؛ وذلك لأن أغلبية من يستخدمون أنظمة الذكاء الاصطناعي كما أسلفنا لا اطلاع لهم على الخلفية التقنية لطريقة عمله، وقد يأخذون إجاباته على أنها لا جدال في صحتها لأنها تصدر عن أجهزة وبرمجيات خارقة متقدمة حيادية.

وسيتبادر إلى الذهن فور الفراغ من قراءة ما سبق سؤال هام: لماذا لا نرى أنظمة ذكاء اصطناعي منتجة بأيد مسلمة في بلاد مسلمة، لنكون متأكدين من أنها متصفة بالإنصاف والعدل الذي يتصف به الإسلام، فنقول لمن يسأل: قد وضعت يدك على جرح لا ندري متى يندمل؛ ذلك لأن إنشاء مثل هذه الأنظمة يحتاج إلى أمرين: أحدهما متوفر في بلادنا، والآخر ليس متوفرًا بعد.

أما الأول: فهو مهارات بشرية برمجية وتقنية جبارة، قادرة على إنتاج مثل هذه الأنظمة، وما أكثر المبرمجين المسلمين المنتشرين في الشركات العالمية، ومن أشهرهم الشاب مصطفى سليمان، وهو بريطاني من أصل سوري، يشغل حاليًا منصب الرئيس التنفيذي لقسم الذكاء الاصطناعي عند شركة مايكروسوفت، أحد عمالقة البرمجيات في العالم.

أما الأمر الثاني: فهو شركات أو دول مستعدة لاستثمار المليارات في مجال إنتاج برمجيات الذكاء الاصطناعي، فهذا مجال يتطلب استثمارات ضخمة في الحواسيب الخارقة، ويتطلب صبرًا ووقتًا حتى يؤتي الاستثمار أكله.

فإن قال قائل: ولكننا نقرأ يوميًا أن الدولة العربية الفلانية أو العلانية قد استثمرت في الذكاء الاصطناعي وأدخلته في أنظمة أعمالها، وما يسمى (الدولة الإلكترونية)، نقول: نعم، استثمرت في شراء واستخدام أدواته المتوفرة، ولكن للأسف، ليس في إنتاج أنظمتها وأدواته.

من الضروري توعية مستخدمي الذكاء الاصطناعي، أنه ينبغي على من يتعامل معه أن يكون واعياً لمسألة التحيز، حتى لا يقع في فخ غزو فكري من نوع جديد؛ وذلك لأن أغلبية من يستخدمون أنظمة الذكاء الاصطناعي لا اطلع لهم على الخلفية التقنية لطريقة عمله، وقد يأخذون إجاباته على أنها لا جدال في صحتها لأنها تصدر عن أجهزة وبرمجيات خارقة متقدمة وحيادية

وأخيراً، لا بد من التنبيه إلى أن ما تضمّنته سطور هذه المقال ليس سوى مثال واحد، أثرت التفصيل فيه بإسهاب وتدقيق، لشرح وجهة النظر حول التحيز الواضح لأنظمة الذكاء الاصطناعي المتوفرة حالياً، وهذا التحيز نفسه ينطبق على كل المواضيع الفكرية والعقدية؛ لأنّ الذين يقومون بتدريب أنظمة الذكاء الاصطناعي هم من خلفيات إحادية ليبرالية، ممن يدعون إيمانهم بحرية الرأي والفكر، ولكن أفعالهم لا تصدق ادعاءاتهم، فها هم يحاولون فرض آرائهم باستخدام أنظمة الذكاء الاصطناعي، فلا بد من الحذر عند استخدام تلك الأنظمة في البحث والسؤال حول القضايا الفكرية والعقدية؛ لأنّ ما يتعامل المستخدم معه ليس أنظمة محايدة، بل أنظمة موجهة لنشر فكر ومعتقدات من دربوها.



حضارة
وفكر



الأمة بين وعي المجتمعات وتحكّم الأفراد

م. جهاد بوابيجي

خبير إدارة تقنية معلومات، استشاري تحليل أعمال وإدارة مشاريع

يتجه العالم اليوم إلى محاكاة النمط الغربي في فردانيته المتطرفة، التي يتمحور فيها الفرد حول ذاته ومصالحه الشخصية المباشرة، ويتراجع فيها دور المجتمع في الأمة ودور الفرد في المجتمع، وهذا بطبيعة الحال يتسبب في سلبيات كثيرة ومتعددة، فمن المستفيد من هذه الفردانية؟ وما هي آثارها؟ وكيف يمكن التخفيف من آثارها؟ وما هو دور المجتمع في صنع الاستقرار المنشود؟

مقدمة:

جعل الله التكامل بين أفراد المجتمع وخدمتهم لبعضهم البعض طبيعة بشرية وسنة كونية لا يمكن تجاوزها ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ [الزخرف: ٣٢]، لكن التأخر الذي اعترى أمتنا -وما رافقه من ظروف سياسية واجتماعية- انعكس على كثير من التصورات والأفهام، ففقدت العديد من مجتمعاتنا المعاصرة نظرة التكامل بين أفرادها، وصار يصعب أن يكون لدى المرء القدرة على تخيل ما الذي يقدمه لمجتمعه ويؤثر عليه فعلاً، وما الذي يأخذه منه؟

خلال القرن الماضي سعى (الملا) العالمي إلى أن يكون العالم كله مُسخرًا لهم، وهو ما حذر الله تعالى منه حيث قال: ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾ [الحشر: ٧]، فعندما أصبح المال متداولاً بين أصحاب السيادة والنفوذ السياسي والمالي دون غيرهم أصبح الأفراد مسخرين لخدمتهم حصراً دون مجتمعهم. وقد تعزز هذا بشكل كبير في النظام الرأسمالي الحالي، فعبر تحكم (الملا) بالفرد جعلت الرأسمالية الإنسان آلة للإنتاج في النهار والاستهلاك في الليل خدمة لـ (الملا) واستهلاكاً لمنتجاته، دون النظر إلى السياق المحيط بالفرد من أسرة ومجتمع ودين وعقيدة ومرجعيات وآداب وغيرها، فعليه أن يعمل دون تفكير ويجتهد دون توقف لكي يدفع الضرائب والفواتير والإيجارات، وإلا فإنه سينام في الشارع! ومن خرج

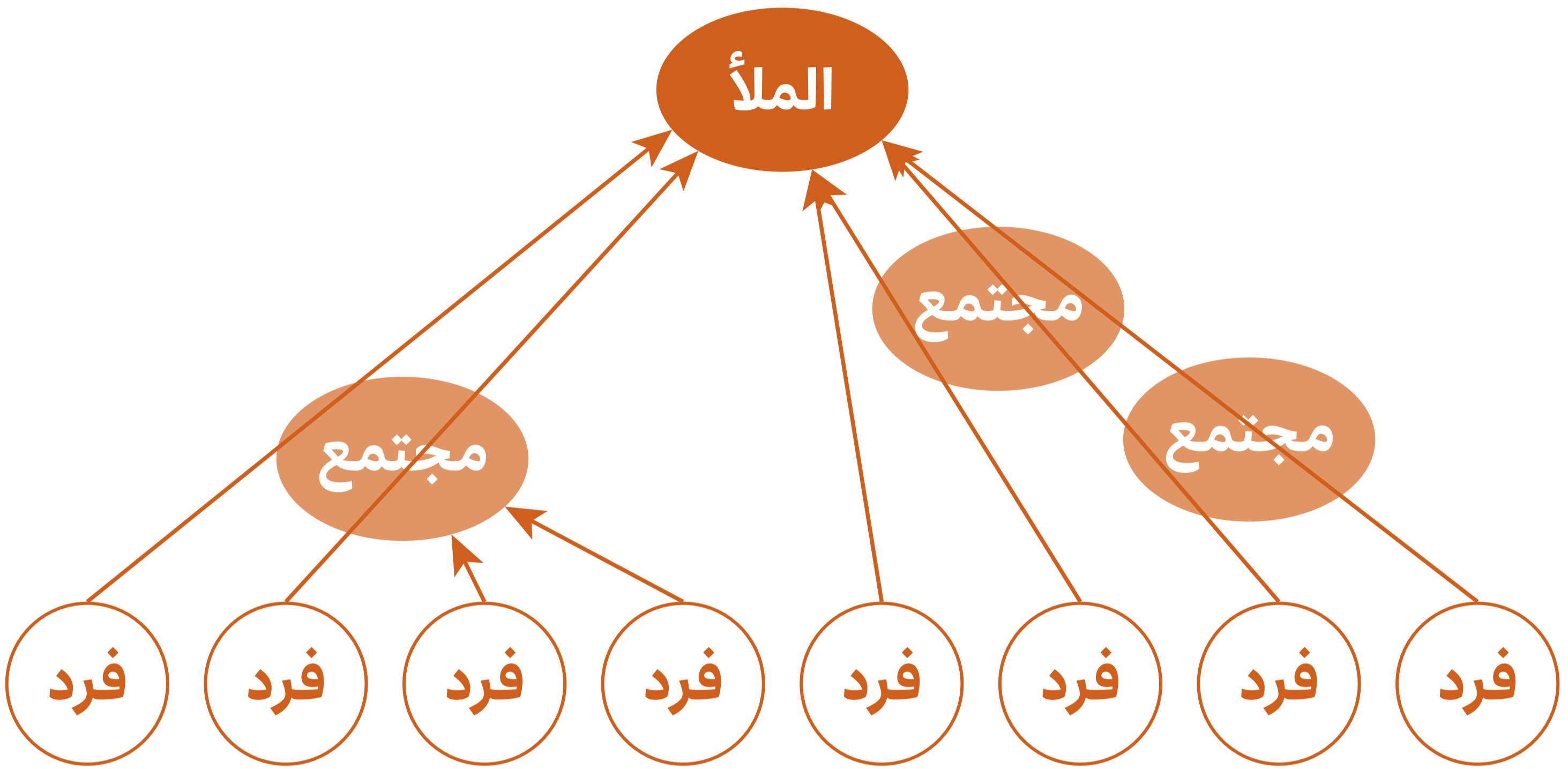
عن هذا السياق فأمامه مساران: إما أن ينضم إلى (الملا) ولهذا نمط خاص يطول ذكره، أو أن يُقضى عليه.

عزَّز الفكر الرأسمالي الغربي سيطرة مجموعة قليلة من الناس على بقية البشر، حيث يتحكم رجال المال والسياسة (الملا) في كل شيء، فيقررون مَنْ يستحق العلاج وَمَنْ يمتلك العقارات وَمَنْ يحصل على التعليم، ويحددون أسعار الغذاء والخدمات، ... وهكذا

هذا السياق العامُّ الشرس جعل كل إنسان يفكر بالنجاة وحده مع مَنْ يحب، وقد عززت الأنظمة الغربية -تحت قيادة الرجل الأبيض- هذا التفكير، وفرضته على مختلف دول العالم خاصة أوروبا والغرب وما يسمى بالديموقراطية. حيث إن الدولة ورجال المال والسياسة (الملا) هم المتحكمون في كل شيء، فهم مَنْ يقرر مَنْ يستحق العلاج على الرغم من كثرة الأطباء وانتشار المستشفيات، وهم مَنْ يقرر مَنْ يمتلك العقارات في ظل الاتساع الهائل للأراضي الفارغة، وهم مَنْ يقرر أسعار الغذاء في ظل تراكم الطعام وكثرة مصانعه، وهم مَنْ يقرر مَنْ يحصل على التعليم في ظل انتشار العلم ووسائله، وهكذا حتى أصبح هذا (الملا) هو مَنْ يستعبد البشر ليجعلهم جميعاً مسخرين لخدمته هو فقط ولا أحد سواه.

إن استمرار التبعية لـ (الملا) من قبل المجتمعات والأفراد له نتائج خطيرة، أهمها انتزاع سيادة الأمة وتحولها من سيادة المرجعيات الثابتة كالشريعة الإسلامية إلى سيادة (الملا)، وهي تتسبب في انحدار الأمم لتخدم نزوات وغرائز (الملا) فوصلت في وقتنا هذا إلى أحط مستوى شهدته البشرية في تاريخها ولم يكن لمخلوق أن يتخيل نتائجها.

التفاعل بين الأفراد والمجتمعات والملا في الوضع الحالي



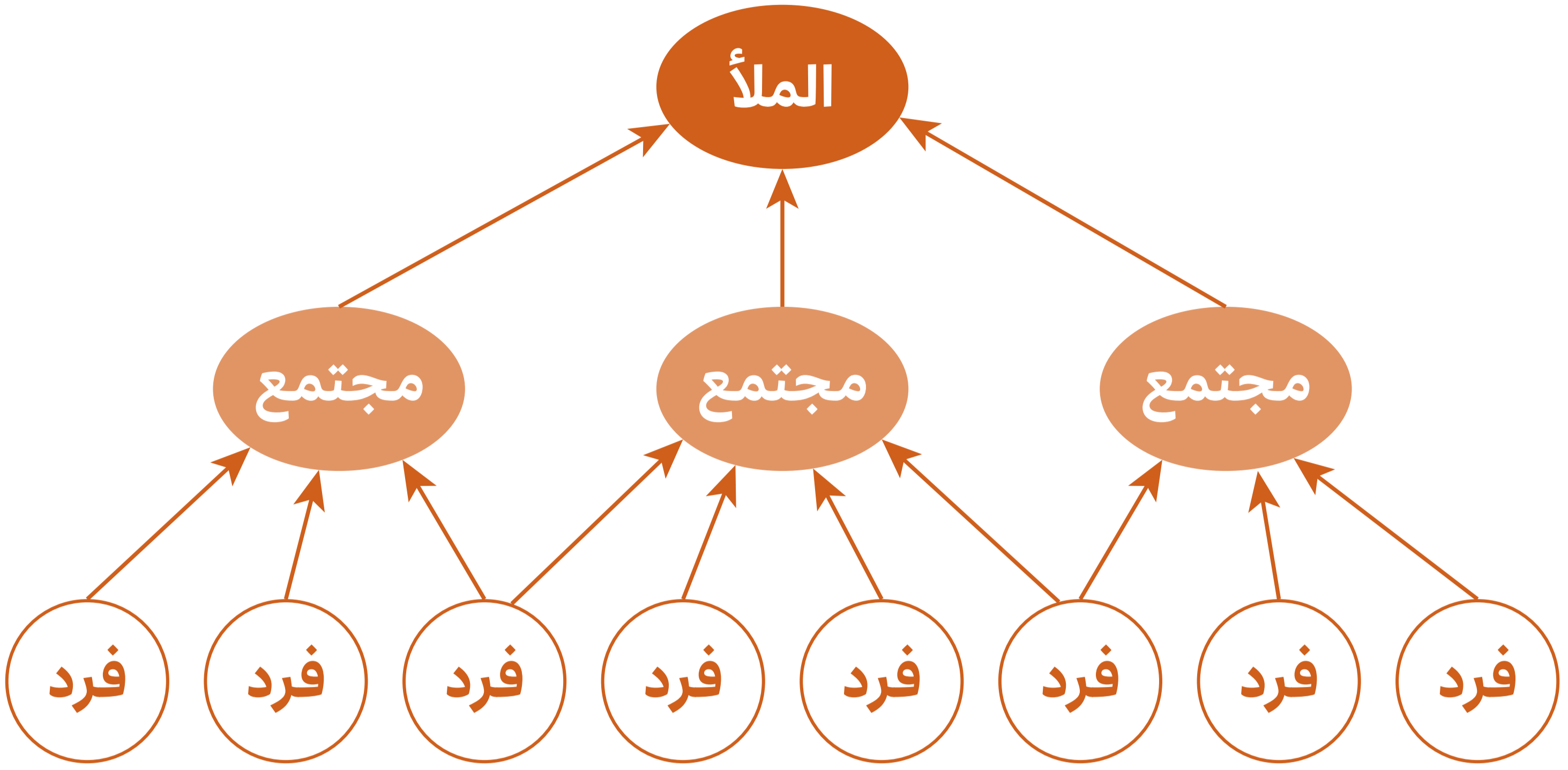
التفاعل بين الفرد والمجتمع:

إن التفاعل بين الأفراد والمجتمعات والملا يمكن أن يوضح بالرسم أعلاه.

فالأفراد يسعون لإرضاء الملا الذين يمتلكون المال والسلطة وما يسيطرونه من قوانين ومعايير، وستجد في الرسم أفرادًا يسعون لإرضاء الملا مباشرة دون أن يكون له مجتمع يؤويه، ومعظم الأفراد إن مر بمجتمع ما فمروره عابر اضطراري، وليس له مشاركة مؤثرة تصنع تغييرًا، فسهم الرغبات والإرضاء يخرج من الفرد إلى الملا؛ ليضمن بقاء الفرد قادرًا على العيش بكرامة بقدر ما يعطي ويدفع. وقد تجد أفرادًا يتبعون مجتمعات، ولكن هذه المجتمعات لا تأثير لها على الملا ولا تشكل له تهديدًا أو تأثيرًا.

يظهر هنا السؤال الأهم:

التفاعل بين الأفراد والمجتمعات والملا في الوضع الصحيح



لماذا وصلنا إلى هذه الحال؟ وكيف الخروج منها؟

لقد بعث الله محمداً ﷺ بدين الإسلام ديناً يهتم بالفرد، لكنه أيضاً يؤسس لمجتمعات صحيحة سليمة وبالتالي تكون أمة قوية، فلا تكاد تجد خطاباً في القرآن يخاطب المسلم بذاته الفردية إلا في سياقات خاصة وضمن أطر محدودة تتعلق بأحداث معينة، أو تشير لطبيعة الحساب الفردي في الآخرة، فخطاب ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ هو الأساس، وامتدح ربنا ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، فعندما يكون هذا التركيز الكبير على العمل الجماعي والروح الجماعية، لم يكن لها أن تخبو في مجتمعاتنا. ولكي يفهم الكلام على وجهه الصحيح: فأنا أتحدث عن العمل الجماعي المؤثر على قرارات (الملا) وليس العمل الجماعي العام المنتشر حالياً الذي لا يكاد يظهر تأثيره على أي من أصحاب التأثير أو مراكز النفوذ.

إن الوضع المستهدف هو الذي يمثله الرسم أعلاه، يلاحظ في الرسم أن كل فرد يكون ضمن مجتمع (ومن الوارد أن يكون في أكثر من مجتمع واحد: جامعة، جمعية، نادي، حزب،

نقابة، مركز أبحاث... وغيرها) فهي مجتمعات (واعية) وقوية ومؤثرة بقوة على (الملا) «بالسهم الأحمر»، أما التبعية والتأثير فتكون من الأفراد إلى المجتمعات الواعية المنظمة التي لديها القدرة على التأثير على قرارات الملا. هذا النمط هو ما يحقق الأثر الحقيقي، وهذا هو الحال الذي يُرعب (الملا) الذي يريد أن يبقى الناس مشتتين أفرادًا، يسوقهم الإعلام حيث يريد، أما وجود مجتمعات مؤثرة فهو أمر يصنع تأثيرًا على أصحاب القرار السياسي والمالي؛ لأن الأفراد لا يخضعون بالضرورة لرغبات (الملا)، بل هم في وحدة من أمرهم على الأقل في قطاع ما يتخصصون به.

يؤكد هذا ما قاله إميل دوركايم (Émile Durkheim): «المجتمعات تُبنى على أساس الوعي الجمعي الذي يُشكّل الرابط الاجتماعي بين الأفراد، ومن خلال هذا الوعي يمكن تحقيق التغيير والإصلاح الاجتماعي»^(١).

تمثل المجتمعات الواعية قوة مؤثرة ضاغطة على (الملا) مما ينعكس على قراراتهم السياسية والمالية، وهذا هو الحال الذي يُرعب (الملا) الذي يريد أن يبقى الناس مشتتين أفرادًا، يسوقهم الإعلام حيث يريد

الحال المقلوب:

غياب المجتمعات سيكون له الأثر الذي وقع مع (الملا) في قوم صالح، الذين أخافوا الأفراد فلم يجروا أحد منهم على الاعتراض على أن يقوم أشقاهاهم بقتل ناقة الله وولدها، جرأة غير مسبوقة في تحدي الله تعالى، ولكنه تجرأ لأن الأفراد متشرذمون لا

(١) التقسيم الاجتماعي للعمل، لإميل دوركايم، ترجمة: محمد يوسف موسى.

تربطهم رابطة مجتمع قوي قادر على التأثير في قرارات (الملا) مهما بلغت رعونة وسفاهة تلك القرارات، وما يحدث الآن من تكون مجتمعات متخصصة فيما يسميه الإعلام (التصنيفات) الذي جعل إعلام (الملا) منه عيباً وجرماً لا يغتفر ليس هو إلا طبيعة بشرية خلقها الله في عباده.

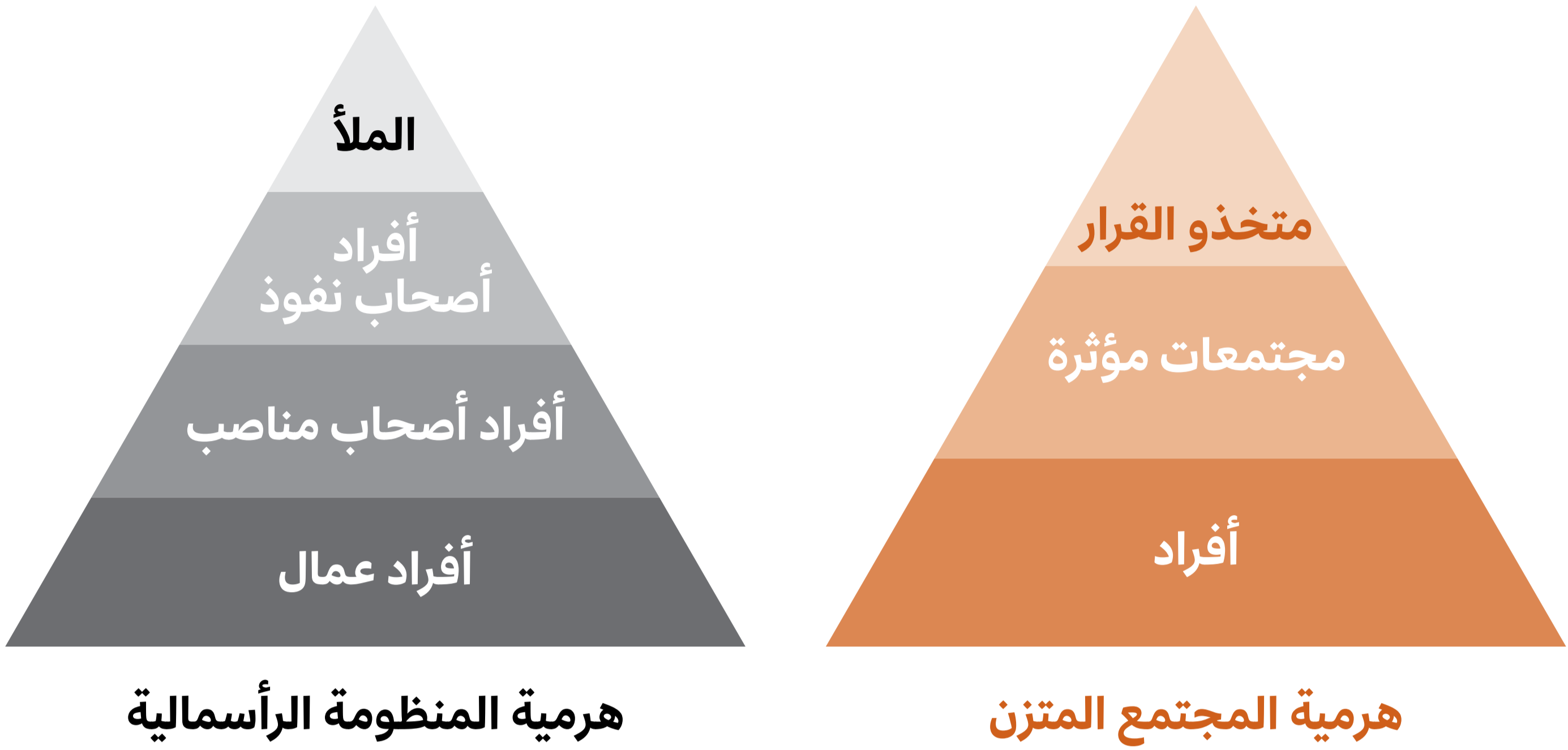
لقد ضخ لنا الانحطاط الرأسمالي هيكلية للمجتمع تجعل الناس إما أصحاب مناصب وإما عمالاً، فأصبح الهرم الرأسمالي تصنيفاً للأفراد فقط، أما المجتمعات الطبيعية المؤثرة التي تحقق للمجتمع طموحه وتدافع عنه حق الدفاع وتنتصر لقضاياها فهذه خطر على (الملا) الذي يرى ما لديه من مناصب استحقاقاً لا يمكن التنازل عنه.

ويمكن ذكر مثال مشرق من تعاون المجتمعات مع صاحب القرار في الدولة الإسلامية في العصر الأول وهو رسولنا ﷺ، فعندما تحدث سعد بن عبادة مع رسول الله ﷺ قبل غزوة بدر لم يكن يتحدث عن نفسه الفردية، بل كان يتحدث عن الأنصار باعتباره مجتمعاً مؤثراً وقوياً، وظهر هذا التأثير عندما طلب الرسول الكريم ﷺ الرأي من الجميع، فسمع رأياً تلو آخر من الصحابة مرات متكررة - وكانوا كلهم من المهاجرين - حتى قال زعيم الأنصار: «إيانا تريد يا رسول الله؟ فلو أمرتنا أن نخيضها البحر لأخضناها، ولو أمرتنا أن نضرب أكبادها إلى برك الغمام لفعلنا»^(١)، فتحدث بقوة مؤثرة فيها وعي بالمجتمع الذي ينتمي إليه، وهذا الموقف الذي رجح للرسول ﷺ العزم على قرار الخروج لبدر لاعتراض قافلة قريش، وبعد فوات القافلة تكرر الأمر باستشارة الصحابة - وبخاصة الأنصار - فكان دعم سعد بن معاذ رضي الله عنه في خوض المعركة. فللمجتمعات

(١) أخرجه مسلم (١٧٧٩).

التفاعل بين الأفراد والمجتمعات والملا في الوضع الصحيح

مقارنة بين هرمية المجتمع المتزن وهرمية المنظومة الرأسمالية



الواعية قوتها في تعزيز الرأي الصائب لمتخذ القرار وبالتالي الأخذ على يد السفية من (الملا) في قراراته الحمقاء.

دور المجتمعات:

يظهر هنا السؤال، في العصر الحالي، ما هو دور هذه المجتمعات، وكيف لها أن تتحرك؟

يجب أن تكون هذه المجتمعات ملاذاً للأفراد وسبيلاً لهم لإظهار ما لديهم من قدرات ومهارات وملكات من الله بها عليهم، كما يجب أن تكون هذه المجتمعات متخصصة ومتنوعة لكي تكون قادرة على أن تشمل جميع المهارات والتخصصات التي لدى الأفراد، فالنقابات على سبيل المثال أحد أشكال المجتمعات التي يمكن أن يكون لها تأثير، ففي الدول الواعية، النقابات هي من تصوغ المعايير المعتمدة في الدولة لأنها جهة تخصصية مستقلة تسعى لخدمة المجتمع الكبير الذي يحتويها.

ولكي نحقق هذا الملاذ المذكور، علينا أن نستوعب أن كل فرد خلقه الله ووهبه قدراتٍ وملكاتٍ ومهاراتٍ تميزه عن

غيره وتجعله مؤثرًا فيما يبدع، ولكن المشكلة المنتشرة هي أن المشتتات في هذا العصر والسياق الرأسمالي الذي تحدثنا عنه كلها حولت الناس إلى عمال يسعى جميعهم إلى تلبية قوانين (الملا) دون أن ينظر كل منهم إلى نفسه واكتشافها ووضعها في المكان الصحيح الذي يحدث التأثير القوي. فتجد الكثير ممن وصل إلى عمر الستين أو السبعين بدأ يفكر بعد تقاعده وتوفر الوقت لديه فيما يحب ويرغب في القيام به، بعد أن ضعفت الهمة وخارت القوة.

هيكلية المجتمع في الفكر الرأسمالي تجعل الناس إما أصحاب مناصب وإما عمالاً، فيصبح الهرم الرأسمالي تصنيفاً للأفراد فقط، أما المجتمعات الطبيعية المؤثرة التي تحقق للمجتمع طموحه وتدافع عنه حق الدفاع وتنتصر لقضاياها فهذه خطر على (الملا) الذي يرى ما لديه من مناصب استحقاقاً لا يمكن التنازل عنه

لهذا فنحن بحاجة إلى اكتشاف هذه المواهب والقدرات لدى الفتية والشباب والكبار أيضاً من رجال ونساء وحثهم على وضعها في مكانها الصحيح المؤثر على المجتمع والأمة وصناع القرار. إن كان هناك مجتمعات متنوعة في الفن والعمارة والهندسة والصحة والحياة البرية والسياسة والقانون والتربية والتأليف والعلاقات والتعليم وغيرها الكثير الجم من التخصصات، فهذه ستكون وسيلة ليكتشف المرء نفسه، ويضعها في المكان الصحيح الذي يحدث تأثيراً قوياً ملموساً يخرجها من دائرة الإنتاج ثم الاستهلاك ولو جزئياً. وإن تحقق في هذه المجتمعات الوعي الاستراتيجي القادر على استيعاب السياق المحيط بها

وتحديد الثغر الذي سيقوم هؤلاء المتخصصون بسده في الأمة وكيفية الضغط والتأثير على صناع القرار، فسيكون للأمة شأن آخر، ولن يكون المنصب الإداري أو السياسي ميزة يحبها ويرغبها كل غث وسمين، بل سيكون مسؤولية تلقى على عاتق من يستحق حملها وأعجبه ذلك أم لم يعجبه، لأن المجتمع هو من يرى أنه أهل لحمل المسؤولية^(١).

كل فرد خلقه الله ووهبه قدراتٍ ومَلَكَاتٍ ومهارات تميزه عن غيره وتجعله مؤثرًا فيما يبدع، ولكن المشكلة اليوم هي أن المشتتات والرأسمالية حوّلت الناس إلى عمال يسعى جميعهم إلى تلبية قوانين (الملاء) دون أن ينظر كل منهم إلى نفسه واكتشافها ووضعها في المكان الصحيح الذي يحدث التأثير

العلاج:

يقول ابن خلدون في مقدمته: الإنسان مدني بطبعه^(٢)، ولا يمكن للأمم أن تنهض إلا بتضافر الجهود الفردية والجماعية والتفاعل بينها لتحقيق الأهداف المشتركة.

ويقول محمد عابد الجابري في نقد العقل العربي: «المجتمعات القادرة على بناء الوعي الجماعي والنقدي هي وحدها التي تستطيع أن تتجاوز أزماتها وتحقيق التحول الديمقراطي والتنمية المستدامة».

(١) مثال ذلك من كولومبيا، التي قامت نقابة عمال الفحم فيها بالضغط على رئيس الدولة ومطالبته بإيقاف التعامل مع الكيان الصهيوني خلال هذا العام ٢٠٢٤، وقام الرئيس بذلك فوراً، على الرغم من أن كولومبيا تعتبر من أكبر مصدري الفحم في العالم إلا أن قرار (العمال) كان له أثر واضح على متخذ القرار في البلاد.

(٢) ينظر: مقدمة ابن خلدون، ص (٥٤).

إن قدرة قيادات المجتمعات على استيعاب السياق العام الاستراتيجي المحيط بها والمقاصد التي خلقنا الله من أجلها؛ هي عماد الوعي، وأساس القوة، وأدوات التحرك تجاه إيصال الأمة إلى العز الذي ذهب منها، وإحكام دين الله في الأرض، ولن يكون ذلك سهلاً أبداً بعد عقود من الضياع والغوص في الحياة الدنيا والركون إليها. فنقابات الأطباء والمهندسين والمعلمين والعمال، وجمعيات رجال الأعمال، ومراكز الأبحاث والدراسات، والجامعات والمعاهد العلمية، والأسر الكبيرة الممتدة، والجمعيات الخيرية وغير الربحية، ومجموعات الضغط المتخصصة كالحركات البيئية والحقوقية، وحتى الشركات والمؤسسات، كلها مجتمعات تحتاج لأن تكون واعية وقادرة على أن تضع نفسها في السياق الصحيح، وأن تعلم ما الذي يمكنها أن تؤثر به وأن تخطط له وتسعى إليه.

وأعجبني ما قاله حليم بركات: «تكوين المجتمعات المؤثرة في الأمة يعتمد على قدرة الأفراد على المشاركة الفعالة في الحياة الاجتماعية والسياسية، وتطوير مؤسسات مدنية قوية ومستقلة»^(١).

وأقتبس كلاماً لمانويل كاستيلز: «في عصر المعلومات تزداد قوة المجتمعات الواعية التي تمتلك القدرة على تنظيم نفسها بشكل فعال واستخدام وسائل التواصل الحديثة لتحقيق أهدافها وإحداث تغييرات جذرية في بنية السلطة»^(٢).

من أجل ما سبق فإن تكون المجتمعات يجب أن يكون طبيعياً سهلاً سلساً تغمر الأفراد فيها سعادة غامرة؛ لأن كل واحد منهم يشعر بأنه ينجز فيما يحسن من أعمال، وأنه ليس

(١) حليم بركات: بحث بعنوان: (المجتمع العربي في القرن العشرين: بحث في تغيير الأحوال والعلاقات).

(٢) عصر المعلومات: الاقتصاد والمجتمع والثقافة، لمانويل كاستيلز، ترجمة: محمد عناني.

مجرد آلة للإنتاج في النهار والاستهلاك في الليل، فيمتلئ فراغ القلب والروح لديه، وبالتالي يزيد وعي المجتمع فيما يحيط به ويقوى ويزيد تأثيره على (الملا) وبالتالي تصبح الأمة كلها في وعي واستيعاب للغاية التي خلقها الله من أجلها.

إن استيعاب قيادات المجتمعات للسياق العام المحيط بها والمقاصد التي خلقنا من أجلها؛ هو عماد الوعي، وأساس القوة، وأدوات التحرك نحو إيصال الأمة إلى العز الذي ذهب منها، ولن يكون ذلك سهلاً أبداً بعد عقود من الضياع والغوص في الحياة الدنيا والركون إليها

توصيات عملية:

إن الجميع قادر على أن يقدم شيئاً لأمة الإسلام، والتخلص من سيطرة (الملا) القابعة على صدر الأمة بأسرها بقرارات رعناء وسفاهة لم يشهدها التاريخ سابقاً. ولكن كل فرد يعمل باتجاه وغيره يعمل باتجاه آخر دون وعي أو توحيد للجهود، فذلك هدر للجهد وضياع للوقت، ولهذا فإنني أضع بين يدي القارئ بعض التوصيات:

« إلى رجل الأعمال: جد المجتمع الذي يلبي شغفك وادعمه بالمال والتحفيز وبالعلاقات التي لديك دون التحكم في قراراته، وانظر إلى عدوك الذي يدعم تجمعات لم تؤت أكلها إلا بعد قرون من العمل جيلاً بعد جيل، فلا تستعجل الثمرة وليكن هذا التجمع الذي تدعم مثل ابنك الذي تربي وتضعه في وصيتك لكي تكون قد ساهمت في سد ثغر في أمة الإسلام وما أكثرها في هذا الزمن.

« إلى القيادات المؤثرة التي لها صوت مسموع: أنشئوا التجمعات الواعية، وليكن عملكم تجاه أهداف واضحة كالشمس وقوية راسخة كالجبال واجعلوها قادرة على الصعود في سلم التأثير على (الملا) الحالي لنصل إلى صناعات يريدهم تحقيق مصلحة أمة الإسلام لا ذواتهم الناقصة، ولا تستعجلوا الثمرة، فنحن في زمن نؤسس فيه إلى قرن قادم وليس إلى يوم تالٍ، والله سائلنا عما فعلنا وليس عما أنجزنا.

« إلى الأفراد المبدعين (وكلنا مبدع): قوّ صلتك بالله لكي تزيد وتتحسن كل يوم، بل كل ساعة، وحقق التوكل عليه كما يريد هو سبحانه لا كما تريد أنت. ابحث عن المجتمع الذي يلبي طموحك وإن لم تجد فساهم في صناعته. استمر دون توقف في تنمية ذاتك واستثمر بها، قوّ علاقاتك واجعل لك إنتاجاً علمياً أو كتابةً أو أي عمل يكون لك ذخراً أمام الله تعالى كي تكون أفضل نسخة ممكنة من نفسك.

« إلى من لديه حضور على وسائل التواصل الاجتماعي: اعلم أن مجرد وجود متابعين لك هو مسؤولية كبيرة على عاتقك، وكل معلومة تنشرها ستكون لك أو عليك، فاستوعب ما أنت عليه من قدرات وافهم السياق الذي يحيط بك، ولا تكن غافلاً عما تمر به الأمة الإسلامية مهما كان صغيراً، فأنت لست وحدك، أنت مجتمع بذاتك، فحافظ عليه وليكن عملك خالصاً لوجه الله، ولتكن غايتك المزيد من الوعي والتأثير فيما يرضي الله وليس المزيد من المتابعين أو الأرباح، فتلك نتائج الله أعلم بها. واستمر في زيادة ثقافة نفسك ومن حولك، ولا تكن جاهلاً تنشر الجهل والسفاهة والسخافة، فأمتنا تريد المزيد من الرجال والنساء الواعين، وليس التافهين.



دعوة



معالم وإرشادات في دعوة أهل الإلحاد

أ. أحمد خضر المحمد

ماجستير عقائد وأديان، مسؤول ملف الإلحاد في مركز مناصحة

١٠١

العدد ٢٨ | ربيع الآخر ١٤٤٦هـ - تشرين الأول / أكتوبر ٢٠٢٤م

دعوة

يظن كثيرون أن امتلاك قدر من العلم الشرعي يكفي لإجراء حوارات ناجحة مع الملحدين وأمثالهم بهدف هدم حججهم ودعوتهم للإسلام، لكن العديد من التجارب أظهر غير ذلك، فالملحدون لهم طرائق وأساليب متقدمة في الحوار، قد تلبس على من لم يستعدَّ جيدًا، بل قد يتشرب قلب المحاور بشبهات سلبية خطيرة، وفي هذا المقال إضاءة على بعض المعالم المهمة في دعوة هذه الفئة.

تمهيد:

إن واقع الحالة الإلحادية المعاصرة يستدعي معالجات تختلف تمامًا عن المعالجات القديمة، فليست المسألة الآن حشد الأدلة على وجود الخالق، بل لا بد من أسلوب جديد يستوعب الحاضر بكل ظروفه وتعقيداته، لذلك كان هذا المقال الذي يجيب عن عدة أسئلة متعلقة بأسلوب الحوار مع الملاحدة واللاذنيين عبر أربعة محاور.

المحور الأول: ما المواصفات المطلوب توفرها فيمن يتصدى لدعوة الملحدين؟

أهم ما يحتاج إليه المحاور المسلم هو الإخلاص لله تعالى، فلا ينبغي من حوارهِ مباحاة العلماء، ولا ممارسة السفهاء، ولا ينشد كثير سواد المتابعين، وجمع الإعجابات والتعليقات في وسائل التواصل، بل كل همه هداية الحيارى، وإرشاد التائهين، وقديمًا قال علماؤنا: «المناظرة في العلم لنصرة الحق عبادة»^(١). وما دامت المناظرة عبادةً فلا بد أن تكون خالصةً لله تعالى، فيها ينال العبد التوفيق في الدنيا، والأجر في الآخرة من الله العلي الحكيم.

وصفات أخرى كثيرة ينبغي للمحاور أن يتحلى بها، يطول بنا المقام إن أردنا ذكرها في هذا المقال الموجز، لذلك سنذكر أهمها:

(١) حاشية رد المحتار على الدر المختار، لابن عابدين (٦/٤٢١).

أهم ما يحتاج إليه المحاور المسلم هو الإخلاص لله تعالى، فلا ينبغي من حوارهِ مُباهاة العلماء، ولا مُماراة السفهاء، ولا ينشُدُ كثير سواد المتابعين، وجمع الإعجابات والتعليقات في وسائل التواصل، بل كلُّ همهِ هداية الحيارى، وإرشاد التائهين

أولاً: العلم:

لا بد أن يكون الداعية والمحاور المسلم على علم وبصيرة، قال تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨]، فينبغي لمن يتصدى لمجادلة أهل الباطل أن يكون له قدم راسخة في العلم يستطيع به درء ما قد يلقي عليه من شبهات، وإلا وجب اجتناب مجادلتهم، وغني عن القول في هذا السياق تضلع المناظر بالعلوم الشرعية كافة؛ من تفسير وحديث وفقه وسيرة وغير ذلك.

وأول ما يجب عليه فيما يخص مناظرة أهل الإلحاد أن يعلم أدلة وجود الله، وما يطرح الملاحدة عليها من شبهات في القديم والحديث، وأن يدرس الشبهات وردودها، وأن يفهم نظرية المعرفة وما يتعلق بها من حقيقة العلم ومصادره، وما هو مقبول منها ومردود، بالإضافة إلى اطلاعه على العلوم الكونية، وخاصة تلك التي يتكئ عليها الملاحدة في بث شبهاتهم، كعلم الفلك، وفيزياء الكم، والبيولوجيا، فإن لم يكن متخصصاً في العلوم الكونية، فليخل الساحة لمن سدّ هذا الثغر.

وأن يفيد من فتوح الإعجاز العلمي في زماننا، وأن يكون على دراية بسرّ الحياة وغايتها، ونشأة الكون وتصميمه، كي يكون مُدرّكاً لما يُروّجه هؤلاء من تلبيساتٍ باسم العلم؛ كأزلية الكون،

وعبثية الحياة، والأكوان المتعددة، ونظرية التطور، وغير ذلك من افتراضات زائفة لا وزن لها في ميزان العلم الصحيح.

ولا يقتصر المحاور المسلم في الدراسة والمطالعة على علوم الشريعة المختلفة، بل يوسّع دائرة اهتماماته لتشمل الثقافات والعلوم المعاصرة: علم النفس، الاجتماع، الحضارة، الفلسفة، الفيزياء.. إلخ؛ فهذه الثقافات والعلوم لا شك أنها تفسح له المجال لفهم دلالات الآيات القرآنية والأحاديث النبوية برحابة أكثر، وتعطيه القدرة على رؤية مكامن القصور والخطأ في الفكر الإلحادي^(١).

ومن هنا يجب على المحاور أن يُعد مادته إعدادًا جيدًا، وأن يحضّر لها تحضيرًا شاملًا، حتى لا يظهر بمظهر الضعيف، وكما قيل: الجاهل يخذل الدين من حيث أراد أن ينصره، ومن جهة أخرى، لا يأمن المسلم على نفسه من التأثر بحبائل الإلحاد، فقد يعجب بقدرته، ويغتر بعلمه، ثم ما يلبث أن يحميد عن الإيمان، ويقع في براثن الكفر والإلحاد، لذلك نهينا عن القعود مع أهل الباطل، وتجنب أهل البدع والأهواء.

لا يأمن المسلم على نفسه من التأثر بحبائل الإلحاد، فقد يُعجب بقدرته، ويغتر بعلمه، ثم ما يلبث أن يحميد عن الإيمان، ويقع في براثن الكفر والإلحاد، لذلك نهينا عن القعود مع أهل الباطل

ثانيًا: الفطنة:

وهي من الصفات الواجبة في حق الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، فبها يكون الرسول قادرًا على إقناع من يدعوهم، ويزيل الشبهات والشكوك من نفوسهم، ومن مواقف

(١) ينظر مقالة: النصائح الذهبية في مناظرة الملحدين، موقع الألوكة، www.alukah.net

الفطنة في الرسل ما حكاه ربنا من حوار موسى عليه السلام مع فرعون حين ثبت على قوة الحجة دون أن يثيره استفزاز فرعون واستخفافه به بقوله: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣]، فأجابه على الفور: ﴿قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢٤]، ولم يلتفت إلى سوء أدبه مع الله تعالى، بل قارع الاستنكار بالحجة البالغة، والشبهة بالبيان الحاسم، لذلك لم يحر فرعون جواباً.

والفطنة والذكاء صفة غريزية، ولكن ومع ذلك ينبغي للداعية أن يبذل سبب اكتسابها بالمران والممارسة، وهذا حافز على الاهتمام بالوسائل التي تغذي هذا الجانب في الدعاة والعلماء من خلال دورات وبرامج يقوم عليها مختصون، ومما يفيد في هذا الصدد مطالعة المناظرات المكتوبة أو المرئية، فإنها تنمي ملكة النقد، وتحليل العبارة، وضبط الأدلة، مما يعين على عدم الانخداع بحيل كهنة الإلحاد وشبهاتهم، وخاصةً المكررة منها.

ومن الفطنة في المناظرات: اختيار الأسئلة التي تبين عوار مذهب الخصم، وتناقض أصوله، ومثال على ذلك: ما فعله الداعية البريطاني المسلم حمزة تزورتزس (ولد: ١٩٨٠ م) حين سأل الفيزيائي الملحد لورنس كراوس Krauss Lawrence في مناظرة عن سبب كون زنا المحارم خطأ؟ فكان جوابه أنه ليس واضحاً لديه أنه خطأ^(١)، حينها اعترض الجمهور المسلم والملحد على السواء على كلام كراوس مستهجنًا إياه حتى بدا الارتباك على وجهه، وحاول أن يلطّف جوابه، ولكن دون جدوى.

وواضح أن هدف الداعية المسلم من سؤاله هذا إيقاع خصمه بمشكلة مصدرية الأخلاق، «فإذا كان الملحد يعتقد أن وجود الكون ووجود الإنسان إنما هو نتيجة للمصادفة العمياء، فما

(١) مناظرة بعنوان: (الإسلام والإلحاد، أيهما أكثر منطقية؟)، المقطع على منصة Youtube بعنوان: (مناظرة بين لورانس كراوس وحمزة تزورتزيس) على قناة الأكاديمية الإسلامية للتعليم والبحث.

المبرر العقلي أو العلمي لاعتقاد وجود قيم أخلاقية مطلقة»^(١)، وما السبيل إلى التمييز بين حسن الأخلاق وقبيحها؟ ومن العلوم أن تناقض أصول الملاحدة الفاسدة، وحججهم الداحضة، تجعل شبههم أوهن من بيت العنكبوت؛ لأنها ضد العقل والبدية والفطرة، فحريُّ بالمحاور اللبيب أن يفيد من هذا كله، ويظهر اضطرابهم وعجزهم.

من الفطنة في المناظرات: اختيار الأسئلة التي تبين عوار مذهب الخصم، وتناقض أصوله، ومن العلوم أن تناقض أصول الملاحدة الفاسدة، تجعل شبههم أوهن من بيت العنكبوت؛ لأنها ضد العقل والبدية والفطرة، فحريُّ بالمحاور اللبيب أن يفيد من هذا كله، ويظهر اضطرابهم وعجزهم

ثالثاً: الحكمة:

تعرف الحكمة بأنها الإصابة في الأقوال والأفعال، ووضع كل شيء في موضعه، وللحكمة شأن عظيم في الحوار مع غير المسلمين ودعوتهم إلى الإسلام، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩].

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الحكمة لا تعني دائماً الكلام اللين، والرفق، والعفو، والحلم؛ فإن الحكمة قد تكون: باستخدام الرفق واللين، والحلم والعفو، مع بيان الحق بالأدلة، وهذه المرتبة تستخدم مع غير المعاندين، وتارة تكون باستخدام الموعظة الحسنة المشتمة على الترغيب في الحق، والترهيب من الباطل، وهذه المرتبة تستخدم مع من عنده غفلة وشهوات وأهواء تصده

(١) ميليشيا الإلحاد، لعبد الله العجيري، ص (١٤٩)، بتصرف.

عن اتباع الحق، وتارةً تكون باستخدام الجدال والتي هي أحسن، وذلك بالدعوة إلى الحق، وردُّ الباطل بأقرب طريق وأنسب عبارة، وهذه المرتبة تستخدم مع الجاحد المعاند^(١).

والحكمة قد تكون في الإعراض عن الشبهة وإماتتها وإخمال ذكر قائلها تارةً، وتارةً تكون بالتصدي لها، والرد عليها، وتقرير المعاند المستكبر المستهزئ المضلّ، وإظهار فشله، وفضح كذبه، ويجمع ما سبق كله آية جامعة من كتاب الله تعالى، وهي قوله سبحانه: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

المحور الثاني: ما نقطة البداية معهم؟

يحسن دومًا البدء بتذكير المخالف أن الهدف من الحوار هو البحث عن الحق، لذلك ينبغي طرح التعصب والعناد جانبًا، ويتفق الطرفان على قواعد للحوار لا يجوز تجاوزها، ولكل مناظرة ظروفها التي تجعل نقطة البداية مختلفةً عن الأخرى، ودونك -أخي القارئ- شيئًا مما ينصح البدء به في مناظرة أهل الإلحاد:

أولاً: تحرير محل النزاع:

فتضبط مع الخصم التعريفات والأفكار محل النقاش، فإن كانت المناظرة حول إثبات صحة نظرية التطور، فتطالبه بمثال عن التطور الأكبر، وليس التطور الأصغر، بعد تبيان الفرق بينهما ابتداءً، وأن محل النزاع هو التطور الأكبر لا الأصغر.

ثانياً: تحديد موضوع المناظرة الكلي وضبط الإشكاليات:

فإن كان موضوع المناظرة حول إثبات وجود الله تعالى فلا يصح الانتقال إلى مناقشة مسألة الحجاب والسبي، وغير ذلك^(٢).

(١) ينظر: الحكمة في الدعوة إلى الله تعالى، لسعيد القحطاني (١٠/١).

(٢) ينظر: كيف تحاور ملحدًا، لأمين خربوعي، ص (٨٥).

ثالثًا: البدء بالأصول وتأخير الفروع:

وهي قاعدة جوهرية؛ فلا يسوغ مناقشة الملحد بمسألة فرعية دون حسم الأصول، فالمناظرة في حُكْم العبادات مثلًا دون الاتفاق على مسألة وجود الله خلل منهجي، ومضيعة للوقت؛ فنبدأ النقاش معه عن سبب الوجود ومصدره، فهذا أصل الموضوع، ثم عن صفات الموجد وهو الله، ثم عن الإسلام، وهكذا حتى نصل به إلى المراد^(١).

رابعًا: البدء بنقاط الاتفاق:

فمثلًا: الضعف البشري زمن الشدائد، والبحث عن سند قويّ يلجأ إليه العبد، سمة عامة عند كل البشر مؤمنهم وكافرهم، فهذا تمهيد للحاجة الفطرية البشرية لا يمكن إنكاره بحال من الأحوال، أما «البدء بنقاط الاختلاف، فإنه يوقف الحوار من أوله»^(٢).

خامسًا: استثارة الفطرة وتحريك العقل:

فمن الحكمة استثارة فطرة الإيمان بالخالق جلّ وعلا، فكل مولود يولد على معرفة الله والإقرار به، والأولى البدء بدليل الفطرة قبل الأدلة العقلية؛ لأنه مركز في النفس البشرية، قد يغفل عنه حال السراء، ولكنه ما يلبث أن يبدو للعلن حال الضراء؛ للعلم الفطري أنّ الله هو الذي يكشف الشدائد، ولا ملجأ منه إلا إليه، ومع دليل الفطرة لا بد من تحكيم قوانين العقل البديهية في مقولات الفريقين المتناظرين؛ فالملاحظة عمومًا يعظمون من قيمة العقل، ويهتمون المسلمون بتعطيله،

(١) ينظر مقالة: الإلحاد.. أسبابه وأنواعه ونصائح للملحدين، موقع إسلام أون لاين، www.islamonline.net

(٢) استراتيجيات الحوار وطرق تنفيذها، للمدربة هدى سرحان، بوابات كنانة أونلاين، www.kenanaonline.com

لذلك كان المنهج العقلي هو أهمّ معولٍ يمكن أن يتمّ الاستناد إليه لهدم أفكارهم، ودحض شبهاتهم.

سادسًا: تلاوة آيات من القرآن:

ساد في أوساط الثقافة الشرعية المعاصرة أنّ مناظرة الملحدّين بالقرآن الكريم خطأً منهجيًّا؛ فهم لا يؤمنون أساسًا بوجود الله تعالى، ولا بالوحي الذي أنزله على رسوله ﷺ، فكيف نستدلّ عليهم بما لا يؤمنون به! والحقيقة أنّ في سيرة الرسول محمد ﷺ ما يعارض هذا السائد، حين كان الرسول ﷺ يفاجئ مشركي قريش بآيات من كتاب الله تعالى، فيبدو التأثير في قسّمات وجوههم، ومناشدتهم إياه السكوت لهول ما يسمعون من عظاتٍ وزواجر.

ولا تحسبنّ أيها القارئ أنّ هذا التأثير يقتصر على من يفهم لغة العرب حقّ فهمها؛ فلحروف القرآن ومفرداته وجُمّله جاذبية خاصة عجيبة تبعث في قلوب السامعين الفرخ والاطمئنان، وتزرع فيها الإحساس بالأمن، وكم شاهدنا من

ساد في التصوّرات المعاصرة أنّ مناظرة الملحدّين بالقرآن الكريم خطأً منهجيًّا؛ لأنهم لا يؤمنون بوجود الله تعالى ولا بالوحي المنزل، والحق أنّ في سيرة الرسول ﷺ ما يعارض هذا السائد، فلحروف القرآن ومفرداته وجُمّله جاذبية خاصة عجيبة تبعث في قلوب السامعين الفرخ والاطمئنان، وتزرع فيها الإحساس بالأمن

أجانب يتأثرون بسماع القرآن تأثراً واضحاً، فتميل رؤوسهم، وتدمع عيونهم، لجرس حروفه، وسبك كلماته، ونظم آياته، وهم لا يفهمون منه حرفاً!

المحور الثالث: نصائح عامة في الحوار مع الملاحدة

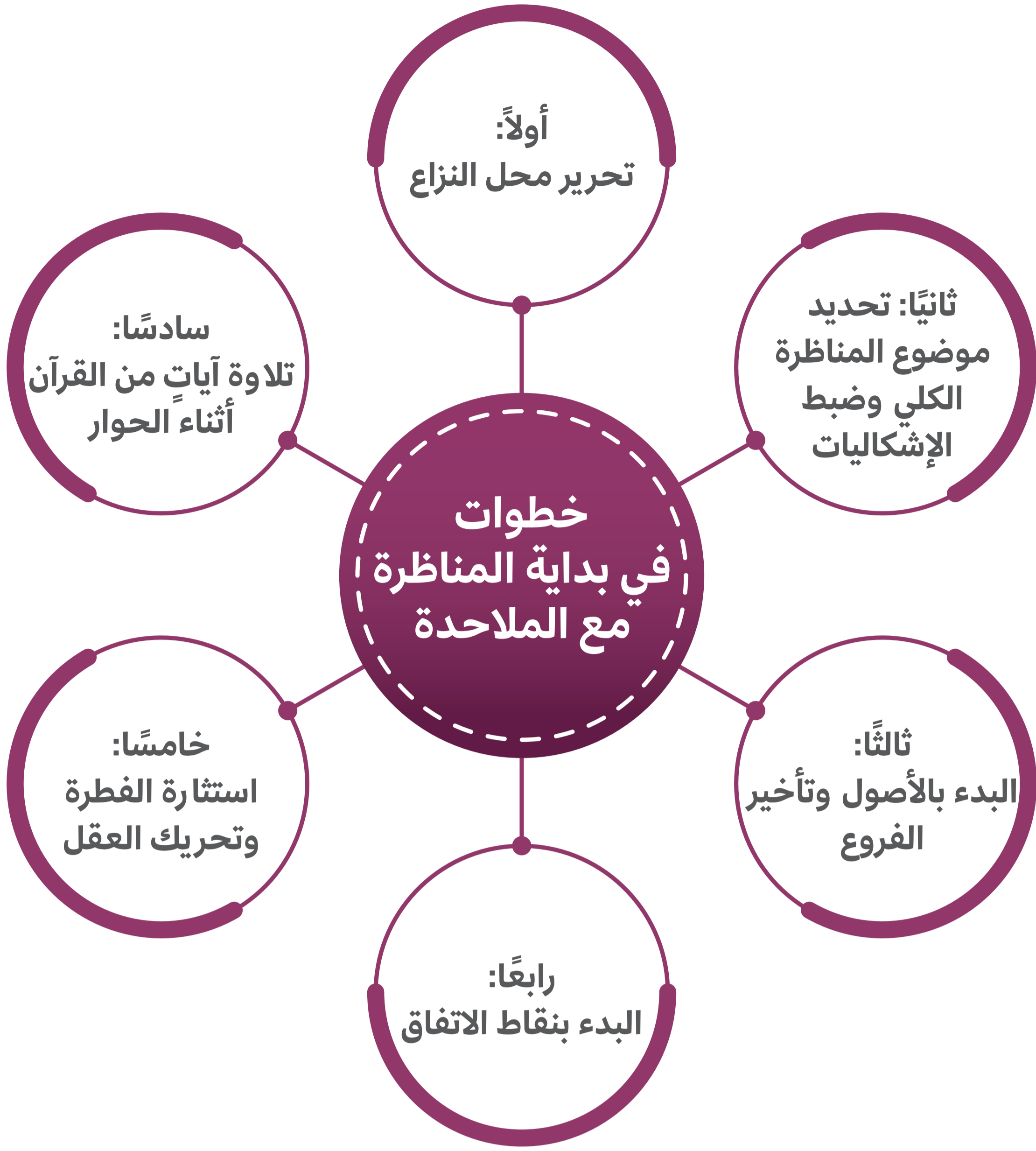
أخطاء عديدة قد يقع فيها المحاور المسلم نتيجة عدم خبرته بأساليب أهل الإلحاد في المناظرات، فقد يعتمد هؤلاء استخدام المغالطات المنطقية، أو الكذب الصريح، أو التدليس والتحريف، لذلك يجب على مناظرهم أن يكون واعياً لآليات المناظرة، وحذراً من تلبيسات خصومه، وهذه بعض الإرشادات اللازمة في هذا الشأن:

أولاً: عدم الانخداع بتدليس الملاحدة:

فينبغي الحذر من السقوط في حيلهم، والتي يستخدمونها لفساد مذهبهم وضعف حجتهم، فتراهم ينسجون شبّهات من بنات أفكارهم ليوهموا بها أتباعهم ومناظرهم أنها أدلة علمية متماسكة، فينساق وراءهم قليل العلم، ومن ذلك ما يثرونه من شبّهات تعتمد على روايات باطلة، فتجد المحاور المسلم أحياناً يتكلف من الردود كل عجيب وغريب في حين كان يكفيه بيان ضعف هذه الأخبار، ومثال آخر على خداعهم سؤالهم المكرر: من خلق الخالق؟ فهو مغالطة منطقية، وتدليس مفضوح بقياسهم الخالق على المخلوق، فإن الخالق أزلي ليس له بداية، خلافاً للمخلوق الحادث.

ثانياً: عدم تقديم دعاوى دون أدلة:

من أسس العلم المتفق عليها: (إن كنت ناقلًا فالصحة، أو مدعيًا فالدليل)، فلا يجوز التسليم بما يدعيه الخصم أو ينقله دون برهان، فربما يستند إلى تفسيرات ضعيفة لآيات قرآنية،



أو على أحاديث منكرة أو موضوعة، أو ينسب لأئمة الإسلام ما ليس لهم به علم زوراً وبهتاناً.

مثال على ذلك: ادّعاؤهم أنّ الأصل هو عدم وجود الإله، وأنّ على الطرف المؤمن الإتيان بالأدلة على وجوده، وهذا تدليس مفضوح؛ إذ الأصل هو وجود الله تعالى، وأدلة عدم وجوده سبحانه منتفية، فالبرهان على الملحد، وإلا سلم بالأصل^(١).

ثالثاً: البعد عن الشخصنة وكذا الإساءة لرموز الإلحاد:

فتحطيم رؤوس الإلحاد لا يكون بالسب والشتم، بل ببيان تناقضاتهم في كثير من القضايا العلمية والمنهجية^(٢)، وتجنب السخرية والذم والتعنيف، ووصفه بالغباء والبلادة؛ فهذا لن يزيده إلا عناداً، بل التلطف معه، والتودد له، وإظهار البشاشة

(١) ينظر: كيف تحاور ملحدًا، ص (٩٣ - ٩٤).

(٢) ينظر: علم نفس الإلحاد، لمحمد محمود حبيب، ص (٢٦٠).

له مع التواصل البصري معه، وعدم مقاطعته، وإظهار الاهتمام بكلامه، دون مدهانةٍ لباطله، أو تفريطٍ في الثوابت النقلية أو العقلية، وغني عن البيان أن من الحكمة أحياناً ردّ الذم والتعنيف بمثله، ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠].

رابعاً: أطراح المدهنات والمجاملات:

كثير من المناظرات تخلو من الإلزامات والتفنيد والإفحام، فتغدو المناظرة مجرد عرضٍ لأفكار المسلم والملحد دونما تمحيص ورد أو نقد ونقض، بل إن بعض من يتصدى للرد على الملاحدة في زماننا كثيراً ما يصرحون بأن الملحد طيب القلب، كريم الخلق، لكن ظروفه القاسية هي التي أدت به إلى هذه الهاوية، وكأنه يلتمس له العذر في جحود الخالق، في حين يُرمى المسلم الملتزم بدينه بالجهل والتخلف والتعصب، وأنه سبب فقدان البشرية بوصلتها في الهداية إلى دين الحق.

خامساً: الجرأة في بيان حال الملاحدة وفضح جهلهم:

وتعزية الأسس التي يقوم عليها الإلحاد، من الظنون الكاذبة والخيالات الفاسدة، كقوله تعالى في فضح الدهرية الملاحدة: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجمانية: ٢٤]، فكشف لنا ربنا ما هم عليه من وهم العلم وغطرسة المعرفة.

سادساً: عدم الاستدلال بأدلة ضعيفة:

الأدلة ليست سواء في حجيتها وقوتها، فلا يغتر المناظر المسلم بضعف خصمه الملحد فيستدل بحجج واهية، فيستغل الخصم هذه الثغرة ليحكم على دعاوى المسلم كلها بالبطلان، لذلك ينصح المسلم بالبدء بأقوى الأدلة العقلية والنقلية، وتأخير الأدلة الأقل قوةً لتنصر الأولى زيادةً في الإفحام^(١).

(١) ينظر: كيف تحاور ملحدًا، ص (٨٩ - ٩٠).

«فكل مَنْ لم يناظر أهل الإلحاد والبدع
مناظرةً تقطع دابرهم، لم يكن أعطى
الإسلام حقه، ولا وفى بموجب العلم والإيمان،
ولا حصل بكلامه شفاء الصدور وطمأنينة
النفوس، ولا أفاد كلامه العلم واليقين»
ابن تيمية

قال ابن تيمية رحمه الله: «فكل مَنْ لم يناظر أهل الإلحاد والبدع مناظرةً تقطع دابرهم، لم يكن أعطى الإسلام حقه، ولا وفى بموجب العلم والإيمان، ولا حصل بكلامه شفاء الصدور وطمأنينة النفوس، ولا أفاد كلامه العلم واليقين»^(١)، ولا مانع من البدء أحياناً بالأدلة الأضعف لإفحام الخصم بالأدلة الأقوى في نهاية المناظرة، والقضاء عليه بالضربة القاضية.

سابعاً: الحذر من أسلوب الإغراق:

وهي حيلة يكثر كهنة الإلحاد من فعلها لقلّة بضاعتهم، فتراهم يلقون على خصمهم المسلم كمّاً كبيراً من الشبهات بقصد التشغيب؛ كقضايا المرأة، والجهاد، وغير ذلك مما لا علاقة له بموضوع المناظرة تشتيتاً للمحاور وإرباكاً له، والحل: عدم الإجابة عن أيّ من هذه الشبهات، ومناقشته في الأصول محل النزاع، وإعلامه أمام الجمهور أنه لم يجب عن الأسئلة المقصودة، وأن فعله هذا تهربٌ ومراوغة^(٢).

ثامناً: خير وسيلة للدفاع هي الهجوم:

من سمات الإلحاد أنه فكرة هدمية لا بنائية، فليس عندهم أدلة على إلحادهم سوى سفسطات وخرافات يلبسونها لبوس العلم يخدعون بها العوام، لذلك على المناظر المسلم أن يعتمد

(١) مجموع الفتاوى، لابن تيمية (٢٠/١٦٤ - ١٦٥).

(٢) ينظر: علم نفس الإلحاد، ص (٢٦٧).

أسلوب الهجوم وعدم البقاء في وضعية الدفاع، فيتوجه للملحد بأسئلة من الوزن الثقيل يستهدف بها جذور الإلحاد الميثة.

تاسعًا: مناقشة أدلة الخصم:

من أسس الإلحاد الجديد الاستدلال بالمشاهدات العلمية والحقائق التجريبية، لذا كان من أهم وسائل الرد عليهم بيان أن كثيرًا من حقائق علومهم لم تخضع للمشاهدات العلمية، ولم توزن بميزان العلم التجريبي، من ذلك نظرية التطور؛ فلم يحضر أحد من دعائها نشأة الخلق، ولا شاهده آخر ونقل لمن بعده كيف وجدت الكائنات الأولى، ولم يُختبر صدق النظرية بتجربة في القديم أو الحديث، فأنى تغدو هذه الخرافة حقيقة علمية يبني عليها أعظم حقائق الوجود!

عاشرًا: الانتباه للتعميمات الفاسدة:

إذ يلجأ كثيرون إلى استخدام الكلام المجمل دون تحديد المعاني المرادة بالضبط في أثناء الحوار والمناظرة، والحل: مطالبتهم دائمًا بتحديد الكلمات بمعانيها اللغوية والاصطلاحية، أي تفكيك الكلمات لقبول ما فيها من الحق، ورد ما فيها من الباطل، وفي هذا نقض لبنائه الإلحادي المنهار أصلاً. مثل: كلمة دين، والتي تشمل الإسلام، والمسيحية، واليهودية، والبوذية.. إلخ، فيساوي الملحد بين هذه المعتقدات جميعًا، فنوافقه أن هذه الكلمة تشمل الجميع، لكن خصائصها وحقائقها تختلف من دينٍ إلى آخر^(١)، وأن الدين عند الله الإسلام.

(١) ينظر مقالة: النصائح الذهبية في مناظرة الملحد، موقع الألوكة، www.alukah.net

نصائح عامة في الحوار مع الملاحدة

- ١ عدم الانخداع بتدليس الملاحدة
- ٢ عدم تقديم دعاوى دون أدلة
- ٣ البعد عن الشخصنة
- ٤ اطّراح المداهنات والمجاملات
- ٥ الجرأة في بيان حال الملاحدة
- ٦ عدم الاستدلال بأدلة ضعيفة
- ٧ الحذر من أسلوب الإغراق
- ٨ الهجوم بدل الاستمرار في الدفاع
- ٩ مناقشة أدلة الخصم
- ١٠ الانتباه للتعميمات الفاسدة

السؤال الرابع: هل هذا ينطبق على كل الملحدين أم أنهم ليسوا على درجة واحدة؟

ظاهرة الإلحاد مركبة معقدة؛ لذا كان من الخطأ تسطيح الحالة الإلحادية واختزالها في عامل واحد ثم تعميمه على جميع الملحدين: (الملاحدة أتباع شهوات، طلاب شهرة، موضة)، والحق أنه قد يجتمع في الملحد سبب أو عدة أسباب، لذلك كان لزاماً على المناظر اكتشاف سبب إلحاد خصمه، فيختار من الأسئلة ما يفصح عن حاله؛ فثمة دوائر وتصنيفات مختلفة على أساسها سيبنى الحوار وطريقته ومستواه؛ فهناك متشكك يطلب الحق، وآخر جاحد معاند، وبينهما الملحد، واللا ديني، واللا أدري، ومنكر السنة، والملحد العربي غير الأجنبي، والمغرور المتعالم يختلف عن الغارق في شهواته.

فالمحاور الذكي هو الذي يراعي أحوال المخالفين والوسائل التي يُؤتون من قبلها، وقد بين النبي ﷺ ذلك لمعاذٍ رضي الله عنه حينما أرسله إلى اليمن قاضياً: (إنك تقدم على قوم أهل كتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله، فإذا عرفوا الله فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلتهم، فإذا فعلوا فأخبرهم أن الله فرض عليهم زكاة من أموالهم وترد

على فقرائهم، فإذا أطاعوا بها فخذ منهم، وتوقَّ كرائم أموال الناس^(١)، فشرح له عقيدة القوم الذين سوف يقدم عليهم حتى يعرف حالهم، ويقدم لهم ما يناسبهم، وما يصلح أحوالهم^(٢).

لإلحاد المراهقين خصوصية في التشخيص
والعلاج؛ فالإلحادهم غالباً ما يكون تعبيراً عن
التمرد على كل ما حولهم من دين أو عادات،
أو إلحاد عاطفي نفسي نتيجة ردة فعل على
أزمات صاعقة عصفت بالشباب المسلم
السني من قتل وتهجير

ومن المعلوم أن طريقة إقناع الملحدين المعاصرين تختلف عن طرق الإقناع لدى القدامى، إذ لا بد أن تحتل المعطيات العلمية مكانها بقوة جنباً إلى جنب مع الأساليب القرآنية، وفرق كبير بين إنكار وجود الله وإنكار صفاته؛ فمن أنكر وجود الله تعالى بسبب مشكلة الشر مثلاً، هو في الحقيقة يعترض على صفات القدرة والرحمة للخالق، فالله تعالى موجود، والشر موجود، فالأولى في هذا الحال قصر الحوار على حكم وجود الشرور والآلام، وأن وجودها لا يتعارض مع صفات الكمال لله سبحانه.

والربوبي الذي يعتقد بوجود الله، وينكر الدين والوحي والرسالة، نقطة البدء معه في حكمة الخالق سبحانه، وأنه لم يخلق الكون عبثاً، وأنه من رحمته بعباده سبحانه من المحال أن يتركهم هملاً دونما هداية لمصالحهم الدنيوية والأخروية.

(١) أخرجه البخاري (١٤٥٨) ومسلم (١٩).

(٢) ينظر: الحكمة في الدعوة إلى الله تعالى (١/ ٢٧).

وكذلك اللاديني الذي يدعي أنه مؤمنٌ بوجودِ إلهٍ متوسلاً بذلك تخطي الحوار في الإلحاد، فيجب أن نعرّفه أن إقراره بوجودِ إلهٍ يجب أن يكون في إطار كمال هذا الإله، والذي يتفرع عنه التصديق بأخباره وأحكامه.

وأما اللادري فنحصره في شكه الملتوي، ونثبت له بالعلم والعقل أن الشك المطلق باطلٌ، وأنّ العقل قادرٌ على الوصول إلى الحقيقة^(١).

وفي السياق ذاته نجد أن لإلحاد المراهقين خصوصيةً في التشخيص والعلاج؛ فالحادهم غالباً ما يكون تعبيراً عن التمرد على كل ما حولهم من دين أو عادات، أو إلحاد عاطفي نفسي نتيجة ردّة فعل على أزمات صاعقة عصفت بالشباب المسلم، كما حصل في ثورات الربيع العربي من قتل وتهجير لأهل السنة.

ولا ننسى في هذا المقام الإشارة إلى نوع من أنواع الإلحاد أشد التصاقاً بالشباب من سواهم؛ ذلكم هو إلحاد الشهوات، القائم على قناعة بأنّ الدين يشكّل حائلاً بين المرء وتحصيل لذاته النفسية والجسدية، فينزعون لكسر القيد الذي هو الدين من خلال إنكاره؛ لأنّ التدين يضيع عليهم فرصة التمتع بالأهواء، والإشباع للغرائز والشهوات^(٢)، وواضح أن الطريقة المثلى في علاج الحالتين السابقتين وما شابههما هي الوعظ والتذكير.

ومن تأثر ببعض الشبهات التي جعلته في برزخ بين الإيمان والكفر، فنذكره بما احتوى عليه دين الإسلام من المحاسن التي يقبلها كل صاحب عقل وفطرة سليمة، فـ«إنّ محاسن الدين الإسلامي عامة في جميع مسائله ودلائله، وفي أصوله وفروعه»^(٣).

(١) ينظر: كتاب الإلحاد، الباحثون المسلمون، ص (٢٢).

(٢) ينظر ينظر مقالة: مدخلٌ إلى فهم أنواع إلحاد ما بعد الثورات، لمحمد خير موسى، موقع منتدى العلماء، www.msf-online.com

(٣) الدرة المختصرة في محاسن الدين الإسلامي، لعبد الرحمن بن ناصر السعدي، ص (٢).

أما الجاحد المعاند، فإنَّ أقوى البيّنات وأمتن الشواهد لن تغني شيئاً معه بسبب ما هو فيه من غفلةٍ أو إعراضٍ أو استكبار، قال تعالى: ﴿قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].

وإنَّ مما يحسن التنبيه إليه أنَّ الملحد مهما زخرف قوله وزين باطله، فإنَّ إلحاده باطنه نفسي وقناعه علمي^(١)، لذلك كان على من يحاور أمثال هؤلاء أن يجمع بين الحجج العقلية، والوجدانية، فالإيمان يدخل القلب عن طريق العقل ثم يستقر في القلب عاطفة، وهذا هو أسلوب القرآن الذي خاطب العقل ولفت انتباهه ومداركه للكون والحياة، ومزج هذا بإثارة الوجدان.

وليكن المحاور دوماً ملتزماً آداب الحوار والمناظرة الإسلامية، وليتجنب منهج التحدي، وتعمد إيقاع الخصم في الإحراج، وأن يعود نفسه على استخدام تعابير الوجه ولغة الجسد للتعبير عن صدقه واقتناعه بما يقول حتى يقتنع الملحد بحجته^(٢)، وإن شعر أنه لم يقتنع بحججه فليحافظ على التواصل معه، ويثني على كلامه الجيد وأدبه وخلقه في المناظرة، قال تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣]، فلربما تعمل هذه الكلمات الرقيقة والمشاعر الطيبة في قلب الملحد وعقله ما لا عمله أطنان المحاضرات والحجج البيّنات.

وقد يكون من الحكمة أحياناً إقفال المناقشة، وخاصةً حينما يغدو النقاش تضييعاً للوقت وتبديداً للجهد، عند ذلك يفضل إقفال المناظرة بطريقةً لبقةً وذكيةً، تُشعر الآخرين أنه لم

(١) ينظر: مدخل إلى الإلحاد النفسي، المحاضرة (١)، د. حسام خطاب، ص (٧).

(٢) ينظر: علم نفس الإلحاد، ص (٢٦١).

ينسحب عجزاً أو يترك المناقشة هزيمة^(١)، بل احتراماً للحقيقة أن تتشوه في حوارٍ عقيمٍ.

”
مهما زخرف الملحد قوله وزين باطله، فإنَّ إلحاده باطنه نفسي وقناعه علمي، لذلك كان على من يحاورهم أن يجمع بين الحجج العقلية والوجدانية، فالإيمان يدخل القلب عن طريق العقل ثم يستقرُّ في القلب، وهذا هو أسلوب القرآن الذي خاطب العقل ولفت انتباهه للكون والحياة، ومزج هذا بإثارة الوجدان

خاتمة:

نخلص مما سبق إلى أنه يجب على المسلمين بذل الجهد في إرشاد الملحدین والمنحرفين، والنصح لهم، بالحكمة والموعظة الحسنة، والعمل على تأصيل منهج شرعي للجدل والمناظرة. وليعلم المناظر المسلم أنه على ثغر عظيم، وفي موقعة يمثل فيها دينه، ويتكلم باسم أمته، ويذب عن بيضة الدين وحياض المسلمين، فليكن على حذرٍ أن يؤتى الإسلام من قبله.

(١) ينظر: استراتيجيات الحوار وطرق تنفيذها، للمدربة هدى سرحان، بوابات كنانة أونلاين، www.kenanaonline.com



تزكية



تربية اللسان

د. ياسر الشلبي

النائب العلمي لجامعة المعالي

١٢٠

العدد ٢٨ | ربيع الآخر ١٤٤٦هـ - تشرين الأول / أكتوبر ٢٠٢٤م

دعاء

تُعَلِّمنا الشريعة الإسلامية اليقظة في كل شيء، وأن المرء مُحاسبٌ على كل أعماله، ومن ذلك ما ينطق به اللسان مهما كان صغيراً أو دقيقاً، وقد خصت الشريعة اللسان بالكثير من التوجيهات لخطورة ما يصدر عنه في الخير والشر، وهذه الخطورة تدفع بالمرء ليهتمّ بتهذيب لسانه وتقويمه وضبطه، وفي هذه المقالة تناول لهذا الجانب المهم بشيء من التفصيل.

عجيب أنت أيها اللسان؛ لم أكن أدرك أنك أولى أعضاء الإنسان بالاهتمام وأنك مدخل التربية قبل أن تكون مخرجاً لها، فبدأت أتفكر فيك، فوجدت النصوص التي وردت في تربيتك وأهميتك وخطورتك كثيرة، أوضحت أنك مبدأ الخير أو الشر؛ فحريّ بالمرتبين أن يهتموا بتربيتك ابتداءً وقبل أي شيء.

أنت عضوٌ واحدٌ بين الأعضاء؛ لكنك الأكثر ثنائياً بينها؛ فطرت على الخير، لكن الشر ما يلبث أن يطراً عليك، وبك تُنطق كلمة التوحيد وفي المقابل تخرج منك كلمات الكفر، وبك تُرتكب أكبر الكبائر، وبكلمة منك يرتفع صاحبك ليبلغ أعلى الدرجات، وبكلمة أخرى يهبط ليبلغ أدنى الدرجات، وبالكلمة تُعقد العقود وتُبنى البيوت وبأخرى تهدم وتضيع.

وأما حالك في الآخرة فإنه يُختم عليك بعد أن كنت الناطق عن باقي الأعضاء، فتتحدث الأعضاء وتشهد على صاحبها بما فعل: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يس: ٦٥].

تأثير اللسان في استقامة بقية الأعضاء:

جعلك سيد البشر ﷺ أمير الأعضاء؛ فهي تناديك كل صباح نداء المستجير: (إنما نحن بك، فإن استقمتم استقمنا، وإن اعوججت اعوججنا)^(١)، ولا عجب؛ فقد قال ﷺ: (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده)^(٢).

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٠٧).

(٢) أخرجه البخاري (١٠) ومسلم (٤١).

«وقال بعض الحكماء: اللسان أسد، وهو حارس الرأس والجسد؛ إن حبسته حرسك، وإن أطلقته حبسك، وإن سلطته افترسك»^(١).

وقال الحسن البصري: «اللسان أميرُ البدن، فإذا جنى على الأعضاء شيئاً جنت، وإذا عف عفت»^(٢). وقال يحيى بن أبي كثير: «ما صلح منطقُ رجل إلا عرفت ذلك في سائر عمله، ولا فسد منطقُ رجل قط إلا عرفت ذلك في سائر عمله»^(٣).

علاقة اللسان بالقلب:

اللسان مفتاح القلب وهو أسرع ما يكشف عن مكنونه، كما قال الشاعر:

وإن لسان المرء مفتاح قلبه

إذا هو أبدى ما يُجنُّ من الفم

واللسان يؤثر في القلب وله دور مهم في استقامته، جاء في حديث أنس رضي الله عنه المرفوع: (لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه)^(٤).

وفي المقابل: فإن أقوال الإنسان وأعماله هي تعبير عما في قلبه، ودلالة عليه، واتفاقهما دلالة على الصدق، أما اختلافهما فهو دلالة على الكذب أو النفاق!، يُنسب إلى عثمان رضي الله عنه أنه قال: «ما أسر أحد سريرة إلا وأظهرها الله على قسماط وجهه وفلتات لسانه»^(٥).

(١) فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء، ص (٢٢٥).

(٢) الصمت وآداب اللسان، لابن أبي الدنيا (٥٩).

(٣) حلية الأولياء (٦٨/٣).

(٤) أخرجه أحمد (١٣٠٤٨).

(٥) الآداب الشرعية، لابن مفلح (١٣٦/١).

قال يحيى بن معاذ: «القلوب كالقدور تغلي بما فيها، ومغارفها ألسنتها؛ فانتظر الرجلَ حتى يتكلم؛ فإنَّ لسانه يغترف لك بما في قلبه، من بين حلوٍ وحامضٍ، وعذبٍ وأجاجٍ، يخبرك عن طعم قلبه اغترافاً لسانه»^(١)، أي كما تطعم بلسانك طعاماً ما في القدور من الطعام فتدرك العلمَ بحقيقته، كذلك تطعم ما في قلب الرجل من لسانه، فتذوق ما في قلبه من لسانه، كما تذوق ما في القدر بلسانك.

وإذا اجتمع طيب اللسان والجنان فقد كمل المقصود من الودود، قال الشاعر:

لسانُ الفتى نصفٌ ونصفٌ فؤادهُ

فلم يبق إلا صورة اللحم والدم

«القلوب كالقدور تغلي بما فيها، ومغارفها ألسنتها؛ فانتظر الرجلَ حتى يتكلم؛ فإنَّ لسانه يغترف لك بما في قلبه، من بين حلوٍ وحامضٍ، وعذبٍ وأجاجٍ، يخبرك عن طعم قلبه اغترافاً لسانه»
يحيى بن معاذ

علاقة اللسان بالإيمان:

قول اللسان عملٌ معتبرٌ يدخلُ في مسمى الإيمان، والنصوصُ الدالةُ على ذلك كثيرةٌ؛ منها:

« قولُ الله تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾

(١) حلية الأولياء (٦٣/١٠).

[البقرة: ١٣٦]، ثم قال عزَّ وجلَّ: ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا﴾ [البقرة: ١٣٧].

قال الحلبي: «فأمر المؤمنين أن يقولوا: آمنا، ثم أخبر بقوله تعالى: (فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به) أن ذلك القول منهم إيمان، وسمى قولهم مثل ذلك -إن قالوه- إيماناً»^(١).

« وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوا: لا إله إلا الله عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها)^(٢)، فقد أخبر صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث أن العصمة المزايلة للكفر تثبت بالقول، فبذلك يثبت أن القول إيمان؛ لأن الإيمان هو العاصم من القتل^(٣).

وقال ابن الملقن في فوائد هذا الحديث: «السادسة: اشتراط النطق بكلمتي الشهادة في الحكم بإسلام الكافر، وأنه لا يكف عن قتالهم إلا بالنطق بهما»^(٤).

علاقة اللسان بالعقل:

العلاقة بين اللسان والعقل قوية؛ فالعقل هو المتحكم باللسان، والميزان لكل ما ينطق به، حتى إنه قيل (اللسان مرآة العقل)؛ فاختيار الكلام وانتقاؤه وتمييزه هو من عمل العقل واختصاصه، فينتقي ما يصلح للنطق به مما يخطر في ذهن الإنسان، ويختار له ما ينطق به. قال الشاعر:

لسان الفتى عن عقله ترجمانه

متى زلَّ عقل المرء زلَّ لسانه

(١) المنهاج في شعب الإيمان (٢٦/١).

(٢) أخرجه البخاري (١٣٩٩) من حديث أبي هريرة، ومسلم من حديث جابر (٢١).

(٣) المنهاج في شعب الإيمان (٢٧/١).

(٤) التوضيح لشرح الجامع الصحيح (٦١٤/٢).

حاسة السمع تبدأ عملها منذ الصغر، وما يسمعه الطفل يُخزّن في عقله وذاكرته، وعندما يبدأ عمل آلة الكلام فإنه يستعيد ما سمعه وينطق بما علق في ذهنه منه، فلا بد أن يُسمَعَ الأبناء ما ينمّي مكارم الأخلاق لديهم، وأن يُحجّزوا عن سماع المحرمات وما يفسد أخلاقهم

وسائل تربية اللسان:

أولاً: ضبط المدخلات، ومنها:

« ضبط حاستي البصر والسمع: فاللسان يعبر عما سمع وشاهد: وحاسة السمع تبدأ عملها منذ الصغر، وما يسمعه يُخزّن في عقله وذاكرته، وعندما يبدأ عمل آلة الكلام فإنه يستعيد ما سمعه وينطق بما علق في ذهنه منه، فلا بد أن يُسمَعَ ما ينمّي مكارم الأخلاق لديه، وأن يُحجّز عن سماع المحرمات وما يفسد أخلاقه.

ومن نعم الله على رسوله ﷺ أنه شبَّ يحوطه تعالى بعنايته، ويحفظه من أقدار الجاهلية؛ لما يريده له من كرامته ورسالته، فقد ذكر ﷺ أنه عزم على الاستماع لسمر قريش في بعض الليالي فنام، وقال: (فوالله ما هممتُ بعدهما بسوءٍ مما يعملهُ أهلُ الجاهلية حتى أكرمني الله بنبوته) (١).

« القدوة وتقديم النموذج الصالح للطفل: فالمربي يتقمّص أسلوب الأهل والمربي في الحديث ونوعه، قال عتبة بن أبي سفيان لمعلم ولده: «ليكن أول إصلاحك لولدي إصلاحك

(١) أخرجه ابن حبان (٦٢٧٢).

لنفسك؛ فإن عُيونهم مَعْقُودَةٌ بِعَيْنِكَ، فَالْحَسَنُ عِنْدَهُمْ مَا صَنَعْتَ، وَالْقَبِيحُ عِنْدَهُمْ مَا تَرَكْتَ»^(١).

قال عمرُ رضي الله عنه: «بَنَسُوا عَنِ الْبُيُوتِ، لَا تَطْمُ امْرَأَةٌ أَوْ صَبِيٌّ يَسْمَعُ كَلَامَكُمْ»^(٢)، فهو يأمر المتحدثين المتشاجرين أن يبتعدوا عن البيوت حتى لا يتأثر النساء والصبية بما يسمعون منهن من لغو ورفث.

« تعويد المتربي على اعتزال مجالس اللغو واللغو: قال السعدي رحمه الله: «**وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ**» أي: لا يحضرون الزور أي: القول والفعل المحرم، فيجتنبون جميع المجالس المشتملة على الأقوال المحرمة أو الأفعال المحرمة، كالخوض في آيات الله والجدال الباطل والغيبة والنميمة والسب والقذف والاستهزاء والغناء المحرم وشرب الخمر وفرش الحرير، والصور ونحو ذلك، وإذا كانوا لا يشهدون الزور فمن باب أولى وأحرى أن لا يقولوه ويفعلوه. وشهادة الزور داخلة في قول الزور تدخل في هذه الآية بالأولوية»^(٣).

ثانيًا: تعويد لسان المتربي على الكلام المفيد:

« إشغال لسان المتربي بما يفيد: فلا شيء يحمي من زلل اللسان مثل إشغاله بالقول المعروف والحسن مع الناس، كالثناء عليهم باعتدال، والدعاء لهم، وذكر محاسنهم، وتطيب نفوسهم، وتقديم الخبرة والمشورة والتجربة والنصيحة لهم، وما شاكل هذا من المعاني الخيرة التي

(١) ينظر: تاريخ دمشق، لابن عساكر (٢٧٢/٣٨).

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير (١٥٧/١)، وقال: «أي تأخروا لئلا يسمعوا ما يستضرون به من الرفث الجاري بينكم».

(٣) تفسير السعدي، ص (٥٨٧).

تعود على صاحبها بالنفع والخير، وعلى المجتمع بالتواصل والترابط، قال تعالى: ﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ [البقرة: ٨٣].

« تعويد لسان المتربي على ذكر الله: كتلاوة القرآن، والتسبيح، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (سبق المفردون) قالوا: وما المفردون يا رسول الله؟ قال: (الذاكرون الله كثيراً والذاكرات) ^(١)، قال ابن بطال: «التكبير والتسبيح معناه تعظيم الله وتنزيهه عن سوء، واستعمال ذلك عند التعجب واستعظام الأمور حسن، وفيه تمرين اللسان على ذكر الله، وذلك من أفضل الأعمال» ^(٢).

« تعليم المتربي الصدق في الحديث وتعويده عليه: عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (عليكم بالصدق؛ فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً، وإياكم والكذب؛ فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً) ^(٣).

« تعليم المتربي ما يقول في المواقف التي تمر به: قال الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الصيام جنة، فلا يرفث ولا يجهل، وإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل: إني صائم) ^(٤)، وقال صلى الله عليه وسلم: (من أطعمه الله الطعام فليقل: اللهم بارك لنا فيه وأطعمنا

(١) أخرجه مسلم (٢٦٧٦).

(٢) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (٣٦٤/٩).

(٣) أخرجه البخاري (٦٠٩٤) ومسلم (٢٦٠٧) واللفظ له.

(٤) أخرجه البخاري (١٨٩٤)، ومسلم (١١٥١) وهذا لفظ البخاري.

خيرًا منه، وَمَنْ سَقَاهُ اللهُ لَبْنًا فليقل: اللهم بارك لنا فيه وزدنا منه... ليس شيء يجزي مكان الطعام والشراب غير اللبن^(١)، وقال ﷺ: (لا يزالُ الناس يتساءلونَ حتى يُقال: هذا خلقُ الله الخلق، فَمَنْ خلق اللهُ؟ فمن وجد من ذلك شيئًا فليقل: آمنت بالله ورسله)^(٢).

ثالثًا: تعويد المتربي على حفظ اللسان عن الكلام الذي لا فائدة منه:

وبيان أجر ذلك وعواقبه، ومن ذلك:

« تعليمه ما يجب اجتنابه من الكلام، ولا سيما الكبائر منها كالغيبة والنميمة وقول الزور والخوض في الأعراض، مع توضيح عقوبتها وخطورتها: قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٢]، قال الحسن البصري رحمه الله: «إياكم والغيبة، والذي نفسي بيده لهي أسرع في الحسنات من النار في الحطب»^(٣).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (لا ينبغي لصديق أن يكون لعانًا)^(٤). وعنه أيضًا قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن العبد ليقول الكلمة لا يقولها إلا ليضحك الناس، يهوي بها أبعدها ما بين السماء والأرض، وإنه ليزلُّ عن لسانه أشد مما يزل عن قدميه)^(٥).

(١) أخرجه الترمذي (٣٤٥٥).

(٢) أخرجه مسلم (١٣٤).

(٣) ذم الغيبة والنميمة، لابن أبي الدنيا (١٦٤).

(٤) أخرجه مسلم (٢٥٩٧).

(٥) مسند ابن المبارك (١٨).

« البعد عن التفاهات: قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢]. قال السعدي رحمه الله: «﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ﴾ وهو الكلام الذي لا خير فيه، ولا فيه فائدة دينية ولا دنيوية ككلام السفهاء ونحوهم، ﴿مَرُّوا كِرَامًا﴾ أي: نزهوا أنفسهم وأكرموها عن الخوض فيه، ورأوا أن الخوض فيه وإن كان لا إثم فيه، فإنه سفه... فربأوا بأنفسهم عنه، وفي قوله: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ﴾ إشارة إلى أنهم لا يقصدون حضوره ولا سماعه، ولكن عند المصادفة التي من غير قصد يكرمون أنفسهم عنه»^(١).

« البعد عن الفحش في الكلام: قال الإمام الغزالي: «الفحش والسبُّ وبذاءة اللسان، وهو مذموم ومنهي عنه، ومصدره الخبث واللؤم، ... فأما حدُّه وحقيقته فهو التعبير عن الأمور المستقبحة بالعبارات الصريحة، ... وأهل الصلاح يتحاشون عنها، بل يكتنون عنها، والباعث على الفحش إما قصد الإيذاء، وإما الاعتياد الحاصل من مخالطة الفساق وأهل الخبث واللؤم»^(٢).

« عدم مجارة الجاهل والسفيه بالكلام: قال السعدي رحمه الله: «﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ﴾ أي: خطاب جهل، ... ﴿قَالُوا سَلَامًا﴾ أي: خاطبهم خطابًا يسلمون فيه من الإثم، ويسلمون من مقابلة الجاهل بجهله، وهذا مدح لهم بالحلم الكثير، ومقابلة المسيء بالإحسان، والعفو عن الجاهل، ورزانة العقل الذي أوصلهم إلى هذه الحال»^(٣).

وعن أبي أمامة الباهلي قال: قال ﷺ: (أنا زعيمٌ ببیت فی ربض الجنة لمن ترك المرء وإن كان مُحققًا، وببيت في وسط

(١) تفسير السعدي، ص (٥٨٧).

(٢) إحياء علوم الدين (٣/١١٨-١٢٢).

(٣) تفسير السعدي، ص (٥٨٦).

الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحًا، وبييت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه»^(١).

« تجنب الكلام فيما لا يعنيه: قال ابن عباس رضي الله عنهما: «لا تتكلم فيما لا يعينك؛ فإنه فضل، ولا آمن عليك فيه الوزر»^(٢)، وقال معروف الكرخي: «كلام العبد فيما لا يعينه خذلان من الله»^(٣)، وقال الفضيل: «تكلّمت فيما لا يعينك، فشغلك عما يعينك، ولو شغلك ما يعينك تركت ما لا يعينك»^(٤).

« عدم الخوض في الفتن والابتعاد عن مواطنها، والرجوع إلى أهل العلم في كيفية التعامل معها: ففي الفتن يختلط الحق بالباطل، وهي مواطن للخصومات والتعامل بالعواطف، والاستعجال في إصدار الأحكام بعيدًا عن تحكيم العقل، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَدَّعَوْا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٨٣].

« التوقف عن الحديث عند الغضب: قال الإمام الغزالي: «ومن آثار هذا الغضب.. وأما أثره في اللسان، فانطلاقه بالشتم والفحش من الكلام الذي يستحي منه ذو العقل ويستحي منه قائله عند فتور الغضب»^(٥).

(١) أخرجه أبو داود (٤٨٠٠).

(٢) الصمت وآداب اللسان، لابن أبي الدنيا (١١٤).

(٣) حلية الأولياء (٣٦١/٨).

(٤) المرجع السابق (١١٠/٨).

(٥) إحياء علوم الدين (١٦٨/٣).

رابعًا: تعليم المتربي استخدام مهارات التفكير قبل الكلام وأثناءه، ومنها:

« تعلم فن الهدوء، وعدم الاستعجال في الكلام: قال بعض قضاة عمر بن عبد العزيز له، وقد عزله: «لِمَ عزلتني؟ فقال: بلغني أن كلامك مع الخصمين أكثر من كلام الخصمين»^(١).

« النظر في الكلام وتأمّله قبل التكلم: فينظر فيه هل هو من الخير أو الشر، فإن كان خيرًا لا شرّ فيه تكلم، وإن كان شرًا لا خير فيه ترك؛ عملاً بقول النبي ﷺ: (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت)^(٢)، وإن اشتبه عليه: طبق قول النبي ﷺ: (فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه)^(٣).

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «إذا أراد أن يتكلم فليفكر قبل كلامه، فإن علم أنه لا يترتب عليه مفسدة، ولا يجرّ إلى محرم ولا مكروه فليتكلم، وإن كان مباحًا فالسلامة في السكوت لئلا يجرّ المباح إلى المحرم والمكروه»^(٤). وقال الحسن: «ما ضربت ببصري، ولا نطقت بلساني، ولا بطشت بيدي، ولا نهضت على قدمي، حتى أنظر على طاعة أو على معصية، فإن كانت طاعة تقدّمت، وإن كان معصية تأخرت»^(٥).

« تعود مهارات التفكير قبل الردّ: وإعطاء فرصة لغيره للحديث، وإعطاء نفسه فرصة للاستماع والتأمّل؛ ليصبح أكثر تحكّمًا بمشاعره واندفاعاته وينضبط لسانه.

جراحاتُ السنان لها التّمامُ

ولا يَلْتَمِ ما جرحَ اللسانُ

(١) أدب المجالسة، لابن عبد البر، ص (٥٤).

(٢) أخرجه البخاري (٦٤٧٥) ومسلم (٤٧).

(٣) أخرجه البخاري (٥٢) ومسلم (١٥٩٩) واللفظ له.

(٤) فتح الباري (٥٣٢/١٠).

(٥) الورع، لابن أبي الدنيا (١٩٥).

« مهارات التفريغ الإيجابية: من ذلك تعلم مهارات الكتابة لما يجول في نفسه أو لما يريد توجيهه للغير من نصح أو نقد، فهي تعين على التفريغ لما في النفس، وتعطي صاحبها فرصة لمراجعة ما كتبه قبل الحديث، والتراجع عن بعض الكلام قبل التحدث به.

« وضع حدود ومفاهيم تتعلق بالكلام، نحو:

- (لا للوقاحة.. نعم للصراحة)؛ فالإنسان يمكن أن يقع في الخطأ لكن لا بدّ من التراجع عنه وتصحيحه.
- (لا للتبرير)؛ فالتبرير يحوج الإنسان للّف والدوران وأحياناً للكذب.
- (تحدث معي بهدوء).
- (عبر عما في نفسك، ولكن فكر قبل أن تتكلم).
- (الصدق منجاة).
- (ابدأ العلاقات بالاتفاق وأنها بالأخلاق).
- (افهم الكلام قبل أن ترد على غيرك).

خامساً: تعليم المتربّي مهارات الصمت، ومنها:

« تعليمه متى يصمت ومتى يتحدّث: «ففي اللسان آفتان عظيمتان، إن خلص العبد من إحداهما لم يخلص من الأخرى: آفة الكلام، وآفة السكوت، وقد يكون كلّ منهما أعظم إثماً من الأخرى في وقتها؛ فالساكت عن الحقّ شيطان أخرس، عاصٍ لله، مُراءٍ مُداهن إذا لم يخفّ على نفسه. والمتكلم بالباطل شيطان ناطق، عاصٍ لله. وأكثر الخلق منحرف في كلامه وسكوته فهم بين هذين النوعين، وأهل الوسط - وهم أهل الصراط المستقيم - كفوا ألسنتهم عن الباطل، وأطلقوها فيما يعود عليهم نفعه في الآخرة، فلا

ترى أحدهم يتكلم بكلمة تذهب عليه ضائعة بلا منفعة، فضلاً عن أن تضره في آخرته، وإن العبد ليأتي يوم القيامة بحسنات أمثال الجبال، فيجد لسانه قد هدمها عليه كلها، ويأتي بسيئات أمثال الجبال فيجد لسانه قد هدمها من كثرة ذكر الله وما اتصل به»^(١).

قال كعب الأحبار: «قلّة النطق حكمة، فعليكم بالصمت؛ فإنه رعة حسنة، وقلّة وزر، وخفة من الذنوب»^(٢).

قال رجل لأبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أوصني يا أبا سعيد، قال: «عليك بالصمت إلا في حق، فإنك به تغلب الشيطان»^(٣).

ولأهميّة الصمت في استقامة اللسان كان صوم اللسان عن اللغو والكلام الباطل؛ فالصوم تكليف يحتاج إلى الصبر وتحمل الإيذاء اللفظي وترك قول الزور والعمل به لتأدية هذه العبادة.

« الإقلال من الكلام: قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «مَنْ كَثُرَ كَلَامُهُ كَثُرَ سَقَطُهُ»^(٤). وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: «أَنْصِفْ أذْنَيْكَ مِنْ فَيْكِ؛ فَإِنَّمَا جَعَلَ لَكَ أُذُنَانِ اثْنَتَانِ، وَفَمٌ وَاحِدٌ؛ لِتَسْمَعَ أَكْثَرَ مِمَّا تَقُولُ»^(٥).

« ألا يتحدث بكل ما شاهده أو سمعه، فإذا شهد أمراً فليتكلم بخير أو ليسكت. قال الإمام مالك: «فساد عظيم أن يتكلم الإنسان بكل ما يسمع»^(٦).

« ألا يتكلم بما لا يعلم: قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾

(١) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، ص (١٦١).

(٢) حلية الأولياء (٣٦٧/٥).

(٣) الصمت وآداب اللسان، لابن أبي الدنيا (٩١).

(٤) المرجع السابق (٥١).

(٥) عيون الأخبار، لابن قتيبة (١٩٣/٢).

(٦) سير أعلام النبلاء (٦٦/٨).

[الإسراء: ٣٦]، قال الإمام الماوردي رحمه الله: «من سكت عما لا يعلم سلماً، ومن تكلم بما علم غنماً».

« ألا يتكلم بكلام لا يوافق فعله: قال زبيد الياامي: أسكتتني كلمة ابن مسعود عشرين سنة: «من كان كلامه لا يوافق فعله فإنما يوبخ نفسه»^(١).

« ثمة أوقات لا بد أن يصمت فيها ويستمع دون أن يتكلم: كوقت سماع خطبة الجمعة، فهي تدريب على الإنصات والتوقف عن الحديث، وهناك أوقات للاستماع والترديد وراء المتكلم كالترديد وراء المؤذن.

« هناك أوقات لا يصلح فيها إلا نوع خاص من الكلام: منها أوقات الصلاة: فعن معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس، إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن)^(٢).

« التفكير في الكلام الذي يقال واستشعار معانيه دون أن يتحدث: كما يفعل أثناء الصلاة يستمع لقراءة الإمام ويتفكر بمعانيها.

التربية الإسلامية شاملة ومتكاملة ومبني بعضها على بعض؛ فتربية حفظ اللسان وتنميته تعين على تربية بقية الجوانب في حياة المسلم، وتنمية حفظ اللسان ليست فقط لمعالجة السلوكيات الخاطئة، بل لتعزيز السلوك الإيجابي وتنميته ونشره والإكثار منه

(١) عيون الأخبار (٢/١٩٥).

(٢) أخرجه مسلم (٥٣٧).

سادسًا: تعليم المتربي مهارات الرقابة الذاتية:

« تحمیل المتربي مسؤولیة كلامه: قال رسول الله ﷺ: (إن الله تجاوز عن أمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تعمل أو تتكلم) ^(١)، فجعل ما لم ينطق به اللسان لاغياً لا حكم له، حتى إذا تكلم به يقع الجزاء عليه ويلزم المتكلم. قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله: «من علم أن كلامه من عمله: قلّ كلامه إلا فيما يعنيه وينفعه» ^(٢).

وإن كثرة الكلام تضرّ بالنفس أكثر مما يضرّ بالبدن الطعام، وكلّ هذا المصاب إنّما جاء من قبل الإعجاب وكثرة الكلام والغرور وعدم التأمل في عواقب الأمور. قال الشاعر:

ما إن ندمت على سكوتي مرة

ولقد ندمت على الكلام مراراً ^(٣)

« التفكير في عواقب الكلام قبل أن يخرج من لسانه: قال أکثم بن صيفي: «مقتل الرجل بين فكّيه» ^(٤). وقال الإمام ابن حزم رحمه الله: «كم شاهدنا ممن أهلكه كلامه، ولم نر قطّ أحداً بلغنا أنه أهلكه سكوته، فلا تتكلم إلا بما يقربك من خالقك، فإن خفت ظالماً فاسكت» ^(٥).

« الإيمان بأسماء الله الحسنی ومنها السميع والرقيب، والإيمان بأعمال الملائكة (رقيب وعتيد): قال الله تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [ق: ١٧-١٨]. قال الحسن: «يا ابن آدم بسطت لك صحيفتك، ووكل بك ملكان كريمان،

(١) أخرجه البخاري (٥٢٦٩) ومسلم (١٢٧).

(٢) البداية والنهاية (٢٠/١٠).

(٣) فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء، لابن عربشاه، ص (٢٢٥).

(٤) عيون الأخبار (٤٥٢/١).

(٥) رسائل ابن حزم (٤٠٢/١).

أحدهما عن يمينك، والآخر عن يسارك. فأما الذي عن يمينك فيحفظ حسناتك، وأما الذي عن شمالك فيحفظ سيئاتك، فاعمل ما شئت، أقلل أو أكثر»^(١). وعن سفيان بن عيينة قال: «انتهى حكيم إلى قوم يتحدثون، فوقف عليهم، وسلم عليهم؛ فقال: تحدثوا بكلام قوم يعلمون أن الله يسمع كلامهم، والملائكة يكتبون»^(٢).

« الدعاء بصلاح اللسان والإعانة على الذكر: عن عبد الله بن عباس قال: كان النبي ﷺ يدعو يقول: (رَبِّ أَعْنِي وَلَا تُعِنِّ عَلَيَّ،... وَسَدِّدْ لِسَانِي، وَاهْدِ قَلْبِي، وَاسْلُ سَخِيمَةَ صَدْرِي)^(٣). وعن أم سلمة رضي الله عنها قالت: ما خرج النبي ﷺ من بيتي قط إلا رفع طرفه إلى السماء فقال: (اللهم أعوذ بك أن أضلَّ أو أُضِلَّ، أو أزلَّ أو أُزَلَّ، أو أظلم أو أُظلم، أو أجهل أو يُجهل عليّ)^(٤).

وختامًا:

لا بد أن يعي المرءون أولوياتهم التربوية وأن يلموا بالمفاهيم المتصلة بها؛ فالتربية الإسلامية شاملة ومتكاملة ومبني بعضها على بعض؛ فتربية حفظ اللسان وتنميته تعين على تربية بقية الجوانب في حياة المسلم، وتنمية حفظ اللسان ليست فقط لمعالجة السلوكيات الخاطئة، بل لتعزيز السلوك الإيجابي وتنميته ونشره والإكثار منه، ولا بد أن تضمن تربية حفظ اللسان التركيز على أهمية احترام الذات وإشعار المتربي بالمسؤولية تجاه كل ما يصدر منه.

(١) تفسير الطبري (٤٠٠/١٧).

(٢) حلية الأولياء (٣٠٢/٧).

(٣) أخرجه الترمذي (٣٨٦٥).

(٤) أخرجه أبو داود (٥٠٤٩).



حضارة
وفكر



الاعتداء على البيئة في الحروب وتدابير حمايتها في الشريعة

د. صبحي رمضان فرج سعد

أستاذ جغرافية البيئة - كلية الآداب - جامعة المنوفية بمصر

البيئة هي الأرض الذي يعيش الإنسان فيها، ويتقلب في مناكبها، وهو مستخلف فيها ومستأمن عليها، ومن واجبه أن يحافظ عليها وألا يُضِرَّ بها قدر استطاعته، وقد قام المسلمون بهذا الواجب خير قيام حتى دارت الأيام وتراجع دورهم، وتقدم غيرهم فلم يرعوا فيها حق الله ولا حق الإنسان خصوصاً في الحروب والنزاعات التي باتت تحدث دماراً هائلاً وخراباً مهلكاً.

مدخل:

أصبح الاهتمام بالبيئة والحفاظ عليها واجباً دينياً ينبغي النهوض به؛ فإعمار الكون أمانة والدعوة إلى الحفاظ عليه هدف، والتعبد لله فيه غاية، وكل ذلك مرهون بصلاح الإنسان ووعيه بمسؤوليته ومشاركته الفعالة في حماية البيئة.

ويتزايد الاعتداء على البيئة بكافة مكوناتها أثناء النزاعات المسلحة، فالحرب والقتال يسببان المعاناة والتشرد ويلحقان الأضرار بالمنشآت والبني التحتية، كما يخلفان دماراً بيئياً وتدهوراً بالموارد والمصادر الطبيعية.

وقد سبق الإسلام غيره من الشرائع والقوانين الوضعية المعاصرة إلى وضع تشريعات مُحكمة لرعاية البيئة وحمايتها في ظروف السلم والحرب.

أولاً: مفهوم الأمن البيئي:

الأمن نعمة من أجل النعم، قال الماوردي في القاعدة الرابعة التي قررها لصالح حال الدنيا: «والقاعدة الرابعة: أمن عام تطمئن إليه النفوس وتنتشر فيه الهمم، ويسكن إليه البريء، ويأنس به الضعيف، فليس لخائف راحة، ولا لحاذر طمأنينة، ... لأن الخوف يقبض الناس عن مصالحهم، ويحجزهم عن تصرفهم»^(١). وقد قال النبي ﷺ: (مَنْ أصبح منكم آمناً في

(١) أدب الدنيا والدين، للماوردي، ص (١٤٢).

سربه، معافي في جسده، عنده قوت يومه؛ فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها^(١).

وأمن البيئة من المصطلحات التي درج استخدامها خلال السنوات الأخيرة، وهو مصطلح يقوم على احترام البيئة وحمايتها ويضمن عدم الإضرار بعناصرها ومكوناتها. وأصبح هذا الموضوع من أولويات واهتمامات الحكومات والدول والمنظمات في أنحاء العالم، وأصبح يعادل اهتمامها بالأمن السياسي. ويعرف «الأمن البيئي» بأنه «إجمالي التأثيرات والعمليات المباشرة أو غير المباشرة التي يقوم بها الإنسان والمجتمع البشري، ولا تؤدي إلى إحداث أضرار بالبيئة أو تهديدات بحدوث مثل هذه الأضرار في المستقبل وتعرض البيئة وتوازنها للخلل والتشويش»^(٢).

واعتنت الشريعة الإسلامية بتحقيق الأمن على مستوياته كافة، ابتداءً من (الأمن الخاص) في الإطار البيئي المباشر الذي يعيش فيه الإنسان، وهو المنزل، فقد روى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لا تتركوا النار في بيوتكم حين تنامون)^(٣)، وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (أطفئوا المصابيح بالليل إذا رقدتم، وغلّقوا الأبواب وأوكوا الأسقية، وخمّروا الطعام والشراب)^(٤). ويتدرج هذا المفهوم وصولاً للإطار البيئي الشامل الذي يتجاوز الفرد إلى المجموع فيما يعرف بـ (الأمن العام أو الأمن المجتمعي)، فعن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (لا يدخل الجنة من لا يأمن

(١) الأمن النفسي والأمن الغذائي، للدكتور محمد العبد، ص (٤-٣)، والحديث أخرجه الترمذي (٢٣٤٦).

(٢) البيئة والإنسان، لعبد الوهاب منصور الشقحاء، جريدة الجزيرة، العدد ١٢٥٩٢، الأربعاء ٢ ربيع الأول، ١٤٢٨هـ.

(٣) أخرجه البخاري (٦٢٩٣) ومسلم (٢٠١٥).

(٤) أخرجه البخاري (٦٢٩٦).

جاره بوائقه^(١)، والبوائق هي الظلم والغوائل. وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده)^(٢)، وقال صلى الله عليه وسلم: (والمؤمن من آمنه الناس على دمائهم وأموالهم)^(٣). بل حثت الشريعة على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، باعتباره صمام أمان المجتمعات في المجال الفكري والأخلاقي، فعن النعمان بن بشير رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (مثل القائم على حدود الله والواقع فيها، كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً)^(٤).

وكما أن للحروب آثاراً خطيرة على حياة الإنسان، فإن لها كذلك آثاراً مدمرة على البيئة بجميع مكوناتها وكافة مجالاتها، وغالباً ما تكون هذه الآثار ممتدة تستمر لفترات طويلة؛ مما يلحق الضرر بالمصادر الطبيعية كالتربة والماء والهواء، والموارد البشرية كالثروات والممتلكات؛ وبالتالي حياة الإنسان وصحته ونمط معيشته.

ومن الممارسات الحربية ذات التأثير على البيئة والإنسان: إنتاج وتجريب الأسلحة النووية، والقصف الجوي والبحري، والألغام الأرضية، وغيرها. وبعض هذه الممارسات تصنف أحياناً جرائم ضد الإنسانية أو جرائم حرب، حسب نوع الأسلحة المستخدمة وكثافة استخدامها وطبيعة البيئة المستخدمة فيها.

(١) أخرجه البخاري (٦٠١٦) ومسلم (٤٦) واللفظ له.

(٢) أخرجه البخاري (١٠) ومسلم (٤١).

(٣) أخرجه الترمذي (٤٩٩٥) وابن حبان (١٨٠).

(٤) أخرجه البخاري (٢٤٩٣).

تحقيق الأمن مطلوب بدءًا من الأمن الخاص في الإطار المباشر الذي يعيش فيه الإنسان، ويتدرج هذا المفهوم وصولاً للإطار البيئي الشامل الذي يتجاوز الفرد إلى المجموع فيما يعرف بالأمن المجتمعي، بل حثت الشريعة على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، باعتباره صمام أمان المجتمعات، في المجال الفكري والأخلاقي

ثانيًا: استغلال البيئة في الحروب:

تعرف «الحرب البيئية» بالتدمير المتعمد وغير القانوني أو استغلال أو تعديل البيئة كاستراتيجية حرب أو في أوقات الصراع المسلح، والذي من المحتمل أن يكون له آثار واسعة النطاق أو طويلة الأمد أو شديدة، وهي محظورة بموجب اتفاقية حظر الاستخدام العسكري التي اعتمدها الجمعية العامة للأمم المتحدة في عام ١٩٧٦ م. ومع ذلك، فقد حدث هذا التدمير بشكل منتظم في الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي، كاستخدام الجيش الأمريكي العامل البرتقالي (الاسم الرمزي لمبيد أعشاب كيميائي) للقضاء على الغطاء الحرجي في فيتنام، وفي عام ١٩٩١ م، أشعلت القوات العسكرية العراقية المنسحبة خلال حرب الخليج النار في آبار النفط الكويتية؛ مما تسبب في أضرار بيئية كبيرة.

وقد سجل التاريخ صورًا عديدة لحروب لم تحترم آدمية الإنسان ولم تراع حرمة البيئة، فالسلاح البيولوجي (الميكروبي) مثلًا، قد عرفته البشرية قبل تاريخه المسجل بوقت طويل، فمن الاستراتيجيات القديمة التي كانت متبعة ضمن وسائل الحرب البيولوجية: تسميم مصادر مياه العدو بواسطة تلويثها

بإلقاء جثث الحيوانات النافقة ومخلفاتها في الآبار والأنهار، وما يزال هذا الأسلوب متبعًا حتى الآن في الحروب الحديثة، ولكن باستخدام مواد كيميائية أو أسلحة بيولوجية تحتوي على ميكروبات ضارة^(١).

وفي العصور الوسطى كان من المألوف قذف جثث الحيوانات النافقة، وكذلك ضحايا مرض الجدري Smallpox والطاعون الدبلي (الرملي) Bubonic من فوق أسوار المدن المحاصرة بواسطة المنجنيق، وهذا ما حدث في القرن الرابع عشر الميلادي (١٣٤٦م) عندما حاصر المغول ميناء كافا البحري -الذي يقع على البحر الأسود في شبه جزيرة القرم الروسية والمعروف حاليًا بفيودوسيا- وأدى ذلك إلى انتشار الوباء بين السكان؛ مما عجل باستسلام الجنود الإيطاليين المحاصرين بالميناء^(٢).

ومارس الأوروبيون حربًا بيولوجية مدمرة ضد هنود القارة الأمريكية بغرض القضاء عليهم -وهم أهل البلاد الأصليين- حيث عملت بريطانيا في ذلك الوقت على توزيع بطانيات ملوثة بفيروس الجدري على قبائل الهنود بدعوى المساعدة. كما شن اليابانيون حربًا بيولوجية ضد جيرانهم الصينيين، حيث أطلقوا قنابل البراغيث الحاملة لمرض الطاعون فوق المدن الصينية خلال الحرب العالمية الثانية، كما أجروا تجارب لاستعمال بعض الميكروبات الممرضة ضد أسرى الحرب الصينيين، ولم يعلم العالم شيئًا عن ذلك إلا عام ١٩٨٠م^(٣).

ومنذ ستينيات القرن الماضي استخدم مصطلح «الإرهاب البيئي» Environmental Terrorism للتعبير عن بعض صور الإضرار البيئي في السياسة والإعلام والأوساط الأكاديمية

(١) الإرهاب البيولوجي خطر داهم يهدد البشرية، لمحمد علي أحمد، سلسلة العلوم والتكنولوجيا، ص (٢٠).

(٢) المرجع السابق، ص (٢٠-٢١).

(٣) المرجع السابق، ص (٢١-٢٢).

في أمريكا الشمالية. ويُوصف التدمير البيئي أو التهديد به بأنه «إرهاب» عندما ينتهك الفعل أو التهديد القوانين الوطنية و/ أو الدولية التي تحم الإضرار بالبيئة أثناء وقت السلم أو زمن الحرب؛ وعندما يُظهر الفعل أو التهديد الخصائص الأساسية للإرهاب. ويشمل ذلك: التهديد بتدمير البيئة من قبل الدول أو الجماعات أو الأفراد من أجل ترهيب أو إكراه الحكومات أو المدنيين، كالتهديد بتلويث إمدادات المياه أو تدمير أو تعطيل مرافق الطاقة، فضلاً عن ممارسات مثل: نشر الجمرّة الخبيثة أو غيرها من العوامل البيولوجية (الإرهاب البيولوجي).

للدول الاستعمارية المعاصرة جرائم بيئية عظيمة، فقد وزعت بريطانيا بطانيات ملوثة بفيروس الجدري على قبائل الهنود تحت ستار المساعدة، والهدف من ذلك هو القضاء عليهم. كما أطلق اليابانيون قنابل البراغيث الحاملة لمرض الطاعون فوق المدن الصينية خلال الحرب العالمية الثانية

ثالثاً: جرائم الحرب البيئية - الأراضي الفلسطينية المحتلة أنموذجاً:

يواصل الاحتلال الصهيوني منذ حرب عام ١٩٦٧م الاستيلاء على المصادر الطبيعية للفلسطينيين، وتدمير التنوع الحيوي، من خلال بناء جدار الفصل العنصري الذي عزل مصادر المياه عن التجمعات السكنية، وجرف الأراضي الزراعية واقتلاع الأشجار وتدمير الحياة البرية، وكذلك شق الطرق الالتفافية التي نتج عنها مُصادرة المياه واستنزافها وتلويثها بمخلفات المستوطنات الصناعية والنفايات بكافة أشكالها، والذي ترك آثاراً مدمرة طالت جميع عناصر البيئة الفلسطينية؛ وهي

ليست انتهاكاً بيئياً فقط، بل جريمة بيئية يعاقب عليها القانونُ الدولي^(١).

وشهد العدوان الأخير بعد السابع من أكتوبر (٢٠٢٣ م) على قطاع غزة في الأراضي الفلسطينية المحتلة قيام الكيان الصهيوني بممارسات إجرامية ممنهجة تصنف جرائم إبادة جماعية (Genocide) وإبادة بيئية (Ecocide).

وتعتبر «الإبادة الجماعية» مصطلحاً قانونياً محددًا، فقد جاء في تقرير مقرة الأمم المتحدة المعنية بحقوق الإنسان في الأراضي الفلسطينية المحتلة الذي قدمته إلى الدول الأعضاء بالأمم المتحدة في جنيف (مارس - ٢٠٢٤ م)، ما نصه: «يبدو أن نية إسرائيل هي تدمير الفلسطينيين بشكل كلي أو جزئي، وهو بند أساسي في اتفاقية مناهضة الإبادة الجماعية»، وذكرت في تقريرها على وجه الخصوص ثلاثة عناصر تشير إلى احتمال «الإبادة الجماعية»، وهي:

- قتل أفراد جماعة أو مجموعة من البشر.
- التسبب في ضرر جسدي أو عقلي خطير لأفراد تلك المجموعة أو الجماعة.
- إخضاع المجموعة أو الجماعة عمدًا لظروف معيشية يقصد بها تدميرها المادي كلياً أو جزئياً.

ومفهوم الإبادة البيئية وثيق الصلة بمفهوم الإبادة الجماعية، فهي جزء لا يتجزأ منها باعتبارها تؤدي حتماً إليها، إذ لا يمكن للبشر البقاء على قيد الحياة دون الحفاظ على البيئة الطبيعية التي تمدهم بأساسيات الحياة؛ وأصبح لزاماً أن يُنظر في جريمة

(١) البيئة الفلسطينية «ضحية منسية» في مرمى جرائم الاحتلال، لخالد أبو علي، مجلة آفاق البيئة والتنمية، العدد ١٣٦، تموز ٢٠٢١ م.

الإبادة البيئية كجريمة تهدد الأمن والسلام العالمي وتتطلب استجابة دولية فورية لمساءلة مرتكبيها^(١).

ومن أمثلة هذه الجرائم:

« تجريف وتدمير الأراضي الزراعية، فقد دمرت الأعمال القتالية أكثر من ثلث الأراضي الزراعية في شمال غزة، وأصبحت الزراعة شبه مستحيلة، والمزارعون يهجرون أراضيهم على نحو متزايد، وتلفت المحاصيل في مساحات واسعة بسبب شح الوقود اللازم لضخ مياه الري، بالإضافة إلى عمليات التجريف ورش المبيدات وإطلاق القذائف والنار بشكل يومي ومتواصل على الفلاحين، وفتح السدود لإغراق الأراضي الزراعية.

« استهداف وتدمير البنية التحتية، مثل مرافق إدارة النفايات ومحطات وخزانات المياه والصرف الصحي، وما يتبع ذلك من منع الحصول على المياه للشرب والنظافة، وتلويث الشواطئ والمياه الساحلية والتربة والمياه العذبة بمجموعة من مسببات الأمراض، يفاقمها تأخر دفن الجثامين وتركها تتحلل في العراء؛ لعدم إمكانية الوصول إليها ومواراتها.

« الركام الذي خلفته الحرب على القطاع، فوفقاً لبرنامج الأمم المتحدة للبيئة فإن الحرب الحالية خلفت ما يقرب من ٤٠ مليون طن من الركام، وبحسب التقرير الأممي فإن إزالة هذا الحجم من الركام سيكون مهمة ضخمة ومعقدة عند إعادة الإعمار، خاصة أن هذا الركام يشكل خطراً على صحة الإنسان والبيئة، بسبب الغبار والتلوث بالذخائر غير المتفجرة ومادة الأسبستوس والنفايات الصناعية والطبية وغيرها من المواد الخطرة.

(١) أبعاد الجريمة البيئية، لإيمان طلعت أبو الخير، مجلة السياسة الدولية، ٣/٧/٢٠٢٤م.

« التلوث الناتج عن القنابل والمتفجرات، فقد كشفت صور الأقمار الصناعية للأيام الأولى من الحرب عن أكثر من ٥٠٠ حفرة ارتطام يزيد قطرها عن ١٢ مترًا، ويقدر ما ألقى على القطاع بنحو ٧٠ ألف طن من المتفجرات، أي ما يعادل ٣ قنابل نووية. كما تم توثيق استخدام الكيان الصهيوني لأسلحة محرمة دوليًا، ولاسيما القنابل العنقودية، بالإضافة إلى الآثار البيئية الناتجة عن ترسب الفسفور في التربة وتسربه إلى المياه الجوفية، مما يلحق الضرر بالصحة العامة على المدى الطويل.

« إغراق الأنفاق بالمياه البحرية بضخ مياه البحر لإغراق شبكة أنفاق تزيد أطوالها على ٥٠٠ كيلومتر أسفل القطاع؛ مما يؤدي إلى ارتفاع في مستويات الملوحة بالتربة وتراجع قدرتها الإنتاجية، وتشقق وانهيار المباني المتهالكة بسبب القصف، وانتشار برك المياه والحشرات الناقلة للأمراض، وتأثر إمدادات المياه العذبة في القطاع.

« تدمير موائل الحيوانات البرية وقتلها وحرق كل أشكال الحياة النباتية بما في ذلك الأشجار والشجيرات والأعشاب، وتحويل المحميات الطبيعية -مثل محمية وادي غزة- بفعل الأسلحة المحرمة دوليًا إلى مقبرة جماعية لكل أشكال الحياة من بشر ونبات وحيوان.

بالرغم من أن الإسلام قد أباح القتال، إلا أنه أمر برد الاعتداء بالقدر اللازم دون تجاوز، وبذلك فقد هذب الإسلام فكرة الحرب وارتقى بها، وراعى فيها الحرمات الإنسانية تمام الرعاية

رابعًا: تدابير الشريعة الإسلامية لحماية البيئة في أثناء الحروب:

بالرغم من أن الإسلام قد أباح القتال، إلا أنه أمر برد الاعتداء بالقدر اللازم دون تجاوز، يقول تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠]؛ وبذلك فقد هذب الإسلام فكرة الحرب وارتقى بها، وراعى فيها الحرمات الإنسانية تمام الرعاية^(١).

وقد وضعت الشريعة الإسلامية ضوابط لحماية البيئة في وقت الحرب، من أهمها ما يلي:

أ. تضيق دائرة المعارك الحربية، وقصرها على الأهداف العسكرية والنهي عن الإسراف في إزهاق الأرواح: مما يحول دون أن تتعرض البيئة بعناصرها المختلفة للضرر، وإذا ما اقتضت الضرورة أن يلحق بالبيئة بعض الأضرار؛ فإن ذلك يكون محدودًا ومقيدًا بالضرورة، فلا يترتب عليه إفساد عام؛ فقد أوصى أبو بكر الصديق رضي الله عنه أسامة بن زيد رضي الله عنه في أول بعثة حربية يُنفذها في عهده، فقال: «لا تخونوا، ولا تغلّوا، ولا تغدروا، ولا تمثّلوا، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة»^(٢).

ب. تقييد استخدام الأسلحة العشوائية وحظر استخدام أسلحة الدمار الشامل: مع أن الأسلحة التي استخدمها المسلمون في بداية التاريخ الإسلامي كانت بدائية، ذات قدرة محدودة على التدمير، فقد حرص الفقهاء المسلمون على تأسيس أحكام بخصوص استخدام أسلحة عشوائية الطابع، مثل المنجنيق (آلة لقذف الحجارة الضخمة) والسهام المسمومة

(١) الاستراتيجية العسكرية الإسلامية- النظرية والتطبيق، لمحمد فرج، سلسلة البحوث الإسلامية، العدد ٧٩، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، القاهرة، ١٣٩٥هـ- ١٩٧٥م، ص (٣١-٣٣).

(٢) تاريخ الطبري (٢٢٦/٣).

والسهام النارية، فقد أبيحت في الحالات التي تتطلبها الضرورة العسكرية، أو عندما يكون ذلك ردًا على هجوم من النوع نفسه. وينطبق ذلك أيضًا على أسلحة الدمار الشامل مثل القنابل النووية وغيرها؛ لما تسببه من فتك وإهلاك عام يشمل البيئة بكافة مكوناتها، دون أن يقتصر على الجنود في ميادين القتال، بل يشملهم وغيرهم ممن ليسوا من أهل القتال كالنساء والصبيان ومن في حكمهم ممن لا يجوز قتلهم بالقتل، فضلًا عن الثروات والممتلكات، ودليل هذا الحظر قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥]، ولأن عمارة الأرض مقصد شرعي واستخدام هذه الأسلحة بما تتسبب فيه من دمار شامل يتنافى مع هذا المقصد.

ج. تحريم التمثيل بجثث القتلى أو إحراقها بالنار: فقد روى الترمذي عن سليمان بن بريدة عن أبيه، قال: كان رسول الله ﷺ إذا بعث أميرًا على جيش أوصاه في خاصة نفسه بتقوى الله، ومن معه من المسلمين خيرًا، وقال: (اغزوا بسم الله، وفي سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، ولا تغلوا، ولا تغدروا ولا تمثلوا)^(١)، وأخرج البخاري في صحيحه عن عبد الله بن يزيد رضي عنه قال: (نهى النبي ﷺ عن النهبى والمثلة)^(٢).

د. الأمر بسرعة دفن القتلى وعدم ترك الجثث في العراء: ذلك لما توليه الشريعة من اعتبار للكرامة الإنسانية، وحماية للبيئة من التلوث حتى لا تصبح الجثث مرتعًا للجراثيم، وتنبعث منها الروائح الكريهة التي تلوث الهواء وتفسد التربة.

(١) أخرجه الترمذي (١٧٠٩).

(٢) أخرجه البخاري (٢٤٧٤)، (النُّهْبَى: أخذ المرء ما ليس له جهارًا، والمُثَلَّة: التنكيل بالمقتول، بقطع بعض أعضائه).

هـ. الأمر بعدم إتلاف البيئة أو التعدي عليها: من خلال عدم استخدام الأسلحة المحرمة دولياً والتي تسبب إتلافاً واسع المدى والنطاق بالبيئة، واجتناب حرق أو اقتلاع الأشجار أو قتل الحيوانات لغير ضرورة، وعدم التعرض للمدنيين أو نهب ممتلكاتهم ما لم يقاتلوا أو يُعينوا على القتال، واحترام المقدسات وعدم التعرض لأماكن العبادة بسوء. فقد جاء في وصية أبي بكر الصديق رضي الله عنه لأسامة بن زيد رضي الله عنه: «ولا تقطعوا نخلاً ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرةً مثمرةً، ولا تذبحوا شاةً ولا بقرةً ولا بعيراً إلا للمأكلة، وسوف تمرُّون على قوم فرَّغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرَّغوا أنفسهم له»^(١).

أما تخريب نخل بني النضير، المعروف بالبويرة، وهو بستان كان يقع جنوب غرب مسجد قباء، والذي نزل فيه قول الله تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْرِجَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الحشر: ٥]، فالإذن المذكور في الآية فيه قولان: الأول، أنه إذن قدري، يرتبط بالمشيئة، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّقِي الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٦٦]، وإلى ذلك ذهب ابن الأثير وغيره، والثاني: أنه إذن شرعي، وهو ما يؤخذ من عموم الإذن في قوله تعالى: ﴿إِذْنٌ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩]؛ لأن الإذن بالقتال إذن بكل ما يتطلبه بناء على قاعدة: «الأمر بالشيء أمر به وبما لا يتم إلا به» والحصار نوع من القتال، ولعل من مصلحة الحصار قطع بعض النخيل لتمام الرؤية أو لإحكام الحصار أو لاستنزالهم من الحصون^(٢).

(١) تاريخ الطبري (٢٢٧/٣).

(٢) الإسلام والبيئة، لعبد العظيم أحمد عبد العظيم، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٩٩م، ص (٧٠).

وما أجازهُ الفقهاء من هدم وقلع يجب أن يخرج على أساس الضرورات، لا على أساس إيذاء غير المقاتلين والإفساد المجرد، فالعدو ليس الشعب، وإنما العدو هم الذين يحملون السلاح، وعلى ذلك فإذا تبين أن قطع الشجر وهدم البناء ضرورة حربية لا مناص منها، فإنه لا مناص من قطعه أو هدمه، على أنه ضرورة من ضرورات القتال، كما فعل النبي ﷺ هنا وفي حصن ثقيف بالطائف^(١).

إنَّ قواعد وضمانات الشريعة للحدِّ من آثار النزاعات المسلحة على البيئة تسبق بقرون طويلة نظيرتها الواردة في الاتفاقيات والمعاهدات الدولية التي تقنن الحروب اليوم، وهي بالإضافة لشمولها وصرامتها، فإن الشريعة قد أضفت عليها صبغة إنسانية ظاهرة

الخاتمة:

ختامًا فإن قواعد وضمانات الشريعة الواردة في كتب السنة والفقهِ الإسلامي للحدِّ من آثار النزاعات المسلحة على البيئة تسبق بنحو اثني عشر قرنًا نظيرتها الواردة في الاتفاقيات والمعاهدات الدولية التي تقنن الحروب اليوم، كإعلان باريس (١٨٥٦) والاتفاقيات التي تمخضت عن مؤتمرات لاهاي (١٨٩٩ - ١٩٠٧) واتفاقيات جنيف (١٨٦٤ و ١٩٠٦ و ١٩٢٩ و ١٩٤٩).

وبالإضافة إلى ما اتصفت به هذه القواعد والضمانات من شمول وصرامة، فإن تعاليم الشريعة الإسلامية قد أضفت عليها صبغة إنسانية، عن طريق حماية أرواح غير المقاتلين، واحترام

(١) السيرة النبوية- عرض دقائق وتحليل أحداث، للدكتور علي الصلابي (١٧٥/٢).

كرامة مقاتلي العدو، وحظر إلحاق الضرر بالبيئة والممتلكات، إلا إذا فرضت الضرورة العسكرية ذلك.

ومن جانب آخر فإن هذه الاتفاقيات على جدواها من الناحية النظرية فإنه لا تلتزم الأطراف المتحاربة بتطبيقها إلا في حالة توقيعها على الاتفاقية أو المعاهدة، وفي هذه الحالة كذلك لا تكثر هذه الأطراف بموضوع البيئة، بل أدى استخدام الأسلحة المحرمة دولياً - كالنابالم الحارق واليورانيوم المنضب - وغيرها من أسلحة الدمار الشامل إلى أضرار فادحة بالبيئة، يدوم أثرها على مدى أجيال متعاقبة.

فالأطراف المتحاربة لا يحكمها وازع إنساني أو أخلاقي يفرض عليها الالتزام بمواثيق الحروب، بينما جعلت تعاليم الإسلام هذا الالتزام تكليفاً دينياً، فالمسلم منهي عن الاعتداء - ولو في ساحة الجهاد - لعموم النهي عن ذلك في قول الله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠]، والإفلات من المساءلة والعقاب في الدنيا لن تعفيه من المساءلة والعقاب في الآخرة.

وهنا يضع التاريخ إكليل الخلود على حضارتنا، التي انفردت بين الحضارات كلها بالإنسانية والرحمة في أشد المعارك احتداماً، وفي أحلك الأوقات التي تحمل على الانتقام والثأر وسفك الدماء.



قراءات



قراءة في كتاب: «العوائق» لمحمد أحمد الراشد

أ. إسلام عفيفي

باحث في التراث والمخطوطات، ومهتم بعلم القرآن والتفسير

١٥٢

العدد ٢٨ | ربيع الآخر ١٤٤٦هـ - تشرين الأول / أكتوبر ٢٠٢٤م

دقائق

طريق الدعوة شاق طويل، تعترضه العقبات والعوائق، ودون بلوغ نهايته مشاق ومفاوز، والداعية بحاجة إلى التعرف على مشاق الطريق وعوائقه، والاسترشاد بمعالم وعلامات، والاستضاءة بأنوار ومصابيح تهدي السائر وتؤنس وحشته في الطريق، وكتاب «العوائق» للراشد من الكتب المهمة التي أسهمت في بيان معالم الطريق والإرشاد إلى أنواره والتنبيه إلى عوائقه، بأسلوب فريد ولغة جزلة، وهذه القراءة محاولة لتقريبه للقارئ الكريم.

مؤلف الكتاب:

هو محمد أحمد الراشد، وهذا هو اسمه الحركي، أما اسمه الحقيقي فهو: عبد المنعم صالح العلي العزي، عراقي ولد في بغداد عام ١٩٣٨ م، وهو من كبار مفكري الحركة الإسلامية المعاصرة.

تغرب قسرًا وسجن سنين، كتب عشرات المؤلفات في الفكر والتربية والسياسة، وأسس مجلس شورى أهل السنة والجماعة في العراق، وسعى إلى تأسيس قيادة سنية في العراق مع توحيد التيارات السنية، كما انشغل بالقضية الفلسطينية طويلاً، حُكِمَ عليه بالإعدام عام ١٩٨٧ م، وتنقل بين البلاد حتى توفي في المهجر بماليزيا عام ٢٠٢٤ م عن عمر ناهز ٨٦ عامًا^(١).

نبذة عن الكتاب:

هو الكتاب الثاني من سلسلة: إحياء فقه الدعوة للمؤلف، وهو من نشر مؤسسة الرسالة - بيروت، أما الكتاب الأول من السلسلة فهو: «المنطلق»، ويقع كتاب «العوائق» في ٣٣٠ صفحة من القطع الصغير.

(١) موقع الجزيرة نت.

القراءة في الكتاب:

الكتاب عبارة عن زفرات نَجَمها المؤلف في ثلاثة وعشرين مقالا أخذة بحجز بعض إلى الدعوة، مذكراً بما يراه معيقاً للدعوة، وما عليهم أن يتجنبوه مما يفسدها أو يضعفها، غلب عليها القالب الأدبي الخطابي الوعظي، أكثر فيها من الاستشهاد بالآيات والأحاديث وتنزيلها على المعنى الذي يقصده، وأكثر من الشعر، مع الاستشهاد بأخبار الماضين السالفين وأخبار الدعوة القريبين.

يمزج المؤلف خطراته بعضها ببعض، ويلحق آخرها معنى أولها؛ يستفتح المقال بعنوان لا تستبينه في طالعته، فهو يسمح لنفسه برواحها إلى حيث تشتهي لتقتطف ما تحب من معاني طارفة وتليدة، ثم يعود بك إلى معنى آخر، ثم يرجع بك إلى ما كان قد عنون له في رأس المقال؛ فكل مقالة من مقالاته كالكتاب كله تطلعك على مراده من ذكر العوائق جملة وبعضها تفصيلاً، ولا تستقل مقالة بمعنى تفهمه وحدها.

يعمد إلى المعاني الإيمانية فيعملها في الدعوة تنبيهاً على أن الإيمان ركيزة واحدة تصحب الإنسان في عمله كله؛ حتى يسلم من مفسدات الدعوة وحظوظ النفس.

وإلى جانب ذلك ينبه إلى أمر: خشية (الفتنة)؛ ذاك المصطلح الذي قد كثر في كلامه.

وقد رجع في تأليف كتابه إلى:

- كتب تراثية ومصادر تاريخية؛ مثل: طبقات ابن سعد، وتاريخ الطبري، والأغاني لأبي الفرج.
- وشرعية: منها مجموع الفتاوى لابن تيمية، والخراج لأبي يوسف، والأشباه والنظائر للسيوطي.

• ومسلكية: كالإحياء للغزالي، ومدارج السالكين لابن القيم،
وصيد الخاطر لابن الجوزي.

واستشهد كذلك بكلام عدد من الرموز والمفكرين المعاصرين.

تلك المعاني هي عظم الكتاب وجملته؛ فهو يوطن نفوس كوادر
الدعوة على حسن البذل والاندماج في بنيان دعوي متين، يعرف
كل واحد دوره، ويتقي حظوظ نفسه وتوقه للقيادة، ويكثر
من ذكر مفسد ذلك، ومن ذكر نبذ الاختلاف غير المتزن، ونكث
البيعة، كذا التبعية المهينة، والفرقة المورثة للانفراد والانقطاع.

وهو يمثل مرحلة مهمة من مراحل تاريخ الدعوة، والتنظير
للتجارب الإصلاحية، وتاريخ التصنيف فيها، والأزمات التي
كانت تمر بها، وقد تشترك الأزمات، لكن المجتمعات تتغير
في تكوينها وثقافتها ولسانها؛ لذا فكتاب الراشد يعتبر حلقة
مهمة للتعرف على المنطلقات، وطرق المعالجة، وأساليبها.

وقد ذكر في مقالاته: «ثلاثين نورًا من أنوار الفطنة للمؤمن
من ظلمة الفتنة» ذكر فيها ما على الداعية في العمل الحركي
الجماعي فعله، وما عليه أن يجتنبه؛ مذكرًا بالعوائق عن العمل،
وناصحًا بالمعين عليه، ومرشدًا إليه، وقد أبقيت هذه الأنوار
بترتيبها الذي جاء في الكتاب.

يوطن الكتاب نفوس كوادر الدعوة على
حسن البذل والاندماج في بنيان دعوي متين،
يعرف كل واحد دوره، ويتقي حظوظ نفسه
وتوقه للقيادة، ويكثر من ذكر مفسد ذلك،
ومن ذكر نبذ الاختلاف غير المتزن، ونكث
البيعة، كذا التبعية المهينة، والفرقة المورثة
للانفراد والانقطاع

الزهرة الحمراء:

استفتح المؤلف كتابه بمقدمة عنونها بـ «هذه الزهرة الحمراء»؛ وإنما قصد بها ما يقدمه من نصح للعمل الإسلامي؛ فمَثَلٌ لهذه المعاني بالزهرة في القلب، ثم وضع القارئ أمامَ احتمالين لتلون الزهرة بهذا اللون؛ فإما للخجل من واقع العاملين في الدعوة من اختلافهم ودخول حظوظ النفس بينهم، وإما بلون الدم الذي سقى زهرته التي ما كان لونها كذلك حتى ارتوت منه لمصاب المسلمين.

١. زمرة القلب الواحد:

تحدث فيه عن تآلف الصف الدعوي، وأن الإيمان هو الذي يدفع صاحبه للاصطفاف في طاعة الجماعة المسلمة، كما يقول النبي ﷺ: (لا اختلاف بينهم ولا تباغض، قلوبهم قلب واحد).

ثم هو يذكر قيدين لذلك: «ليست هي استكانة خاضع راهب، ولا تملق طامع مصلحي راغب».

ثم يضيف عمقاً مركزياً في وصف هذا الاصطفاف؛ ألا وهو أنه: «يسوغ من أجلها اتهام العقل عند اختلاف الاجتهاد، والضغط على القلب عند نداء الرغبات؛ حفظاً لهذا الإيمان من أن ينتلم».

ثم تحدث عن سمة قد أوضحها النبي ﷺ في ذكره أن الإيمان يزيد وينقص؛ فكذلك الدعاء في أحوالهم وأعمالهم.

ثم يعود بالعامل في الدعوة إلى أصل من أعمال القلوب، وهو كذلك من أعمال الدعوة؛ ألا وهو المحاسبة ومراقبة النفس في انفعالاتها وسورتها فيلجمها بلجام الحق؛ وإنما سبيلك إلى هذا الإنصاف: إنصاف نفسك بالعز، وإنصاف الدعوة بالانتماء وعرقان الجميل لا يثلمه إلا الانتصار للنفس.

ولا ينبغي للداعية الحق أن يطيع فيما يحب ويحدث الفرقة فيما يكره؛ فهذا من ميراث فساد بني إسرائيل الذين كان سمتهم نقض العهود.

٢. نحو تربية تستدرك:

استفتحتها بقصة موسى والخضر في امتثال موسى له، وهو الأعلى منه شأنًا، لكنه كُفَّ باتباعه؛ فاستفتح كلامه بقوله: «هل أتبعك»، وأن طاعة الدعوة تعود لتلك القصة التي أخبر الله عنها، وأن السبيل إلى ذلك بالتربية الإيمانية التي تصفو فيها العقائد وتعظم العبادات وتسمو الأخلاق.

ثم إن ركيزة دعوة الأنبياء وأول لفظهم: توحيد الله هي التي تعلم أتباعهم الحلم وتعصمهم الفتن، ثم ورثتهم من بعدهم كذلك؛ فتلك هي سير السلف وطرق تربيتهم لأتباعهم.

الداعية الحرُّ الذي تحرر من كل أسر، وسَمَت نفسه عن كل أمر دنيٍّ من أمور الدنيا؛ هو أخلص الدعاة لمعاني الحق، قد انتصر على نفسه؛ فلا يضع أمامه إلا الحق، فما سعي الإنسان إن خالط نيته فساد؟! وذلك مما يفسد الشيطان به حرية العامل في الدعوة فيظل أسيرًا لها، وتظل مثبطة له

٣. التأويل المستدرج:

إنما يتفاضل الدعاة بتعظيم معنى الأخوة، وإنما تكون الأخوة بأن تكون في الله، فتلك هي الأخوة التي يعول عليها، ذلك بأن تكون كالبنيان الواحد.

خلاصة مهمة لمواصلة الطريق رغم العوائق

ألا يسرف
المنتقد في
النقد

ألا نسرف في
اتهام أنفسنا

ثم أخذ المؤلف في بيان سبب هذا التصدع بأن بدايته التأويل؛
تأويل توثيق الرجال بعد الجيل الأول في أول الإسلام حينما خرج
أهل البدع عن معهود علم السلف وجمهور أئمتهم؛ فأخذوا في
نقض البيعة وفرقة الصف كما فعل سلفهم.

٤. سلاسل العيوب:

خلص المؤلف إلى معنى تعالق الفساد الإيماني والدعوي
واتصال أسبابه بعضها ببعض، وأنه أودية تردي، وعقب بذكر
القلب المجاهد الساعي لاستكمال عرى الإيمان، وأن بعضها
يؤدي إلى بعض، وكلما ازداد العبد صفاءً أدرك ما يعلو قلبه
من فساد في أعمال الإيمان؛ فلا يزال يجاهد حتى يتم نوره
كالبدر.

٥. سهام الشيطان:

الداعية الحر الذي تحرر من كل أسر وسمت نفسه عن كل
أمر دني من أمور الدنيا هو أخلصهم لمعاني الحق؛ قد انتصر
على نفسه؛ فلا يضع أمامه إلا الحق، فما سعي الإنسان إن
خالط نيته فساد؟!

كل ذلك مما يفسد الشيطان به حرية العامل في الدعوة فيظل أسيراً لها، وتظل مثبطة له.

٦. الهوى الناقض للبدء النابض:

يجتبي الله بعض خلقه فيختارهم للعيش معه؛ تلك المعية تقوده إلى الارتقاء في المشاهدات التي تجعله يحذر الهوى، وقد رأى الدنيا على ما هي عليه، ونظر بعين قلبه للآخرة؛ لكن الهوى يعمي ويصم.

أما الهوى فمنشؤه ما يميل إليه القلب خلاف الحق فيقعده عن السعي، فكما أن العامل لله حر؛ فالهوى قيد يوثق الإنسان فيه نفسه.

وقد ذكر أربع مفاصد للهوى غير الأسر:

- الصد عن الحق.
- إفساد العقل.
- التنازع بين الإخوة.
- البطالة والقعود عن العمل.

٧. تأليف الأرواح:

وَلَا يَلْبَثُ الْفِتْيَانُ أَنْ يَتَفَرَّقُوا

إذا لم يُزَوَّج رُوحٌ شَكْلٌ إِلَى شَكْلٍ

عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، كان أحد الفقهاء العشرة ثم السبعة الذين عليهم كانت الفتوى تدور بالمدينة.

يرى المؤلف أن هذا البيت من عبيد الله مذهب تربوي فذ، وهو أن تعطى أولوية الأمر لتألف الأرواح قبل أي سعي لتقارب فكري أو علمي، ثم يلفت أن نهج عبيد الله أنبت عمر بن عبد العزيز؛ فانظر إلى الثمرة تعرف صدق رأيه.

وهذا التآلف ضروري لاقتفاء سبيل المصطفى ﷺ والتمسك بنهجه، قال رسول الله ﷺ: (لن تزال هذه الأمة قائمة على أمر الله، لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله).

والرأي الذي ارتضاه المؤلف في صفة الطائفة المنصورة ما قاله النووي احتمالاً: «أن تكون هذه الطائفة فرقةً من أنواع المؤمنين ممن يقيم أمر الله تعالى من مجاهد وفقية، ومحدث وزاهد، وأمر بالمعروف وغير ذلك من أنواع الخير، ولا يلزم اجتماعهم في مكان واحد، بل يجوز أن يكونوا متفرقين».

٨. الجندية طريق القيادة:

فيه يضرب المثال بحسن تربية عبيدالله بن عتبة لتلميذه عمر بن عبد العزيز الذي أحسن قيادة الأمر فأحسن سياسة الناس؛ فلم يكلهم لفراغهم، بل شغلهم بما يصلحهم، وزهدهم في طلب الرئاسة، ثم ما كان من سفيان الثوري والفضيل بن عياض من مواصلة ذات النهج في ذم طلب الرئاسة، وفي الزهد فيها؛ فما من سبيل صحيح إليها إلا أن تأتي تكليفاً دون تشوف لها أو طلبها، واستمر هارون الرشيد في شغل الناس بالغزو حتى لا يفرغوا فتنشأ العداوات.

٩. أنوار الفطنة تبدد ظلمات الفتنة:

الرجل العاقل الفطن هو الذي يعمل ليذهب بالظلم، لا الذي يحبس نفسه في ظلمة اليأس ينتظر أن يرى نور الحق، أما فطنة الإيمان فلا تبالي بالعوائق؛ لثقتها بصحة ما هي عاملة فيه، وأول تلك الأنوار التي تذهب بظلمة الفتنة:

* النور الأول: الاستعاذة بالله من الفتنة؛ فالله سبحانه وحده هو الذي يعيد، وهو الذي يحفظ، وهو الذي يثبت.

”
الداعية لا يكمل إلا إذا صار غضبه لله،
وتجنب الغضب لنفسه، والانتصار لها،
وإذا كانت صفة الحرية عريقة في الداعية؛
فهو مُلجَم بلجام التقوى، وإذا عركته خبرة
الناس وعرف طبائع النفوس فسيجد في
نفسه بحبوحة الإعذار

١٠. تناصح وتغافر:

دين الإسلام دين جد؛ ومنه الدعوة إليه؛ فمن رام أن يسلك
سبيلها فلا بد له من مسارين تربويين:

١. مسار التجرد الإيماني من شهوات النفس وحظوظها.

٢. ومسار الاستدراك بعلاج ما طرأ من عيوب.

* النور الثاني من أنوار الفطنة: تنقية النية مما علق بها من
شوائب.

وتخليط النيات هو أصل الفساد؛ فالناصر هو الله، وما من
عمل إلا والنية ميزانه، وعليها عقدته وإبرامه.

* النور الثالث: قبول النصيحة، وطلبها من الخبراء.

وذاك من حق الأخ على أخيه، وهي علامة صدق المؤمن في
صلاح نفسه؛ وذلك كان دأب السلف، وإذا كان هذا حالهم
فداعية اليوم أحق بذلك لما يحيط به من الفتن.

* النور الرابع: تغليب نفسية التغافر.

١١. شرط بشرط:

* النور الخامس: التقوى في الغضب الهاجم.

فالداعية لا يكمل إلا بما وُصِفَ به أحمد بن حنبل رحمه الله: «يغضب لله ولا يغضب لنفسه، ولا ينتصر لها»، وإذا كانت صفة الحرية عريقة في الداعية؛ فهو مُلجَم بلجام التقوى، ثم إذا هو قد عركته خبرة الناس وعرف طبائع النفوس فسيجد في نفسه بحبوحة الإعدار.

* النور السادس: وزن المسلم بحسناته وأخطائه معاً.

فتقال العثرة لذوي السوابق، ويُنظر إليهم على أنهم بشر يعترهم ما يعترني بني آدم؛ فلا يلبثون أن يعودوا لأصلهم الطيني في معترك الحياة.

وإنما سادت الأمة ورأسهم أبو بكر وعمر؛ فقد كان عمالهم رجالاً كخالدٍ وأبي عبيدة، فكل شرط لتحقيقه شرط.

١٢. إنه دم الدعوة:

ما زال المعين الأول وردًا لا ينضب يستقي منهم كل من سار في العمل لدين الله؛ ففي سيرهم نور الهداية الذي اقتبسوه من سيدهم ﷺ. فعلى الداعية العاقل أن ينظر ما ينير طريقه في هديهم.

* ومن هنا يذكر الراشد النور السابع: الالتفات إلى عيب النفس.

فإن أول هذا الباب ما يستدرج الشيطان به صاحبه من تتبع عيوب الناس، وإعجابه بنفسه؛ فيقف عليها بدم عيوب الناس ظناً منه تعميتها وأنه وارى سوءته؛ فتصيبه الغفلة عن نفسه فيهملها ويتفرغ للناس.

* ثم يخلص إلى النور الثامن: صون الأذن عن استماع الغمز.

* ثم النور التاسع: المساررة في نصيحة القادة.

١٣. دعوة القول الطيب:

لا يمنع حسن النظر أن يأمر المرء بالمعروف، وينهى عن المنكر مع مراعاة الأنوار المذكورة، ولا تعني هذه أن يقعد المرء عن الصدق بالحق في موضعه.

* لذا ينبغي على العاقل أن يتحلى بالنور العاشر: الإقلال من الكلام.

يعالج المؤمنُ لسانه، وذلك الذي يجعله يتمهل في إقدامه وإحجامه، ورأس ذلك ما قاله النبي ﷺ: (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت)، والسلامة لا يعدلها شيء، أما اللغو فشئ كره.

١٤. خير يعاف الصّاحبين:

إشعاع مشكاة الفطنة مستمر؛ فمما تفيضه على صاحبها أن تهبه الوقار، وكلما تشرف العبد بأنوار الوحي فإنها تنير قلبه.

* والنور الحادي عشر: الإمساك عن الجدل.

فالمرء فيما لا ينفع يوغر صدور الفرد والجماعة، وهو علامة غبن الإنسان أن يعطى الجدل ويحرم العمل.

* النور الثاني عشر: المبالغة في الصدق يوم الفتنة.

وإنما قصد المؤلف تحري الصدق وتعمده، لا المعنى العرفي منه؛ ليكون له سجية؛ ينظر في حاله وفعله مراقباً الله سبحانه ألا يطلع منه على دسيسة سوء ولا إشارة فتنة.

١٥. النجوى طريق البطالة:

«إنما تنقض عرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ في الإسلام من لم يعرف الجاهلية» عمر بن الخطاب.

فمن لم يعرف الشر لا يأمن من مواقعه، وقد ذكر المؤلف أن تسميتها «جاهلية» إنها هي لغة القرآن والنبى ﷺ في تسميتهم الشر كله جاهلية وإن لم يكن مكفرًا.

ومن أنوار فطنة الدعوة ألا يكون ابنها خبًا، بل يحسن استشراف العواقب، وذلك من تمام صحة القلب.

* النور الثالث عشر: ترك النجوى.

لا يكن حال المؤمن في حله وترحاله إلا مع من يزيده إيمانًا؛ وقد جاء ذلك كثيرًا في حروف السلف؛ طلبًا لزيادة الإيمان، فإن لم يجد ذلك فذاك وقت الخلوة.

ثم ينبه إلى أن النجوى دون الجماعة هي من الضلالة المفسدة، وأن ذلك يؤدي إلى نكث البيعة.

* النور الرابع عشر: حمل القلب على استقباح الفتن.

أول المذهب الإعجابُ بشيء من الباطل، ولا يزال المرء يحدث نفسه حتى يفعل! لذا عظم الوحي من قضية الإنكار ولو بالقلب حتى لا يستلين الباطل.

تظهر فطنة المؤمن في تمييزه بادرة الشبهات وهي مقبلة، وفي معرفته ما وطأ به الشيطان سبيله من مرادات الخير فيخلط سواد فحه ببعض الإضاءة لعلها تروج على من أفك عن السبيل

١٦. اللهب البارد:

* النور الخامس عشر: إن الله لا يصلح عمل المفسدين.
تلك الآية تهيب بكل عاقل أن يلوذ بباب الله ليصلح ما بينه وبين ربه حتى يتولى الله صلاحه؛ فهو مقدر الأقدار؛ فذاك الذي يجعله معول بناء، ويمنعه الكسل.

* النور السادس عشر: إدانة السوء الظاهر.

هذا أصل من أصول الدين، وسبب خيرية الأمة؛ ألا وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حتى لو لم يقصد المنكر فاعله، وهاك حديث السفينة، فقد ضرب به النبي ﷺ مثلاً بيناً لمن ترك المنكرات تمضي دون مدافعة.

ثم ينبه على الفرق بين الأمر بالمعروف وبين مصطلح (المعارضة)، ويقرر أن الثاني لا تعرفه أخلاق الإسلام، وأنه نهج باطل، وأنه طريق إلى الفرقة والتباغض، وهذا الذي يفرق بين القيادة في الدعوة - التي يعتبرها كالإمامة في الصلاة - وبين بقية الأحزاب التي يكون باعثها أرضياً وعملاً أرضياً.

ثم يخلص إلى أنه ينبغي على الدعوة أن تزيل هذا الضرر مهما كان فاعله.

١٧. مهاجرون يأبون التعرب:

تظهر فطنة المؤمن في تمييزه بادرة الشبهات وهي مقبلة، وفي معرفته ما وطأ به الشيطان سبيله من مُرادات الخير فيخلط سواد فحه ببعض الإضاءة لعلها تروج على من أفك عن السبيل.

* النور السابع عشر: اتقاء الغدر.

يشير فيه إلى غدر البيعة الشرعية في الدعوة، وإنما البيعة وفاء يجب الالتزام به، والمؤمنون عند شروطهم.

ويذكر أن كلام ابن تيمية عن القواعد الفقهية الحاكمة للعقود والمعاملات ليس فيه ما يمنع من العمل بهذه الشروط الرضائية التي يوجبها الداعية على نفسه طمعاً في أجر العمل الجماعي.

* النور الثامن عشر: خطأ الاحتجاج بزلات السلف.

يمثل المؤلف بمن يتذرع بالخروج على عثمان على من نكث البيعة، ومن يقتدي بمن فعل ذلك من السلف اتباعاً لزلاتهم، وترك أن جمهور المهاجرين والأنصار ثبتوا على البيعة لعثمان في وقت الشدة.

* النور التاسع عشر: الاعتبار باستكبار الشرع لتعرب المهاجر.

يعني أن يتعظ الداعية بما قد نهى رسول الله ﷺ عنه من رجوع المهاجر إلى البادية، ثم يعقب أن حكم التعرب بعد الهجرة وكونه كبيرة خاص بجيل المهاجرين، إلا أن النهي يلحق من اتسم بالهجرة في العمل الجماعي والفتوح وتعليم التابعين، وإدارة الدولة المتوسعة.

١٨. الصادق الكذوب:

يذكر المؤلف أن ثمرات التنظيم الحركي وما كان منه على أرض الواقع أعظم مما تصوّره الجيل الأول، وأن تضافر الجهود أعظم فائدة من العمل العفوي.

ومن جملة الفوائد التي لم يقصدها الجيل الأول: تمحيص القائمين من بين جمهرة المتصدرين، وظهور المعدن النفيس من البهرج.

* النور العشرون: تعليق التضحية على أمر القادة.

فلا يقدم آحاد الدعوة على التوضيحية دون إذن القائد، وأن ذلك فساد في ميزان الفقهاء، وأن البيعة توجب طاعة الأمير في كل خطوة.

* النور الحادي والعشرون: قيادة الباطل مثلبة كما أن جندياً الحق منقبة.

ليست القيمة في العمل لدين الله بأن تكون رأساً أو ذنباً؛ إنما في البذل للحق وإن كنت تابعاً؛ وما ينفع الإمام في الباطل إلا وزر أصحابه!

* النور الثاني والعشرون: أقوال الحق الصادقة لا تكفي لتزكية قائلها تزكية مطلقة.

فالتعويل يكون على سلوك المرء، أما القول فقد يكون حقاً يراد به باطل، أو في مقام يحسن فيه السكوت، أو من شخص له دسياسة غل وحق، مبطن للشرمظهر للخير.

* النور الثالث والعشرون: سوء الرؤساء دليل ضرر المجموعة. إذا تعكرت العين فقد فسد الماء جميعه، فما من جماعة إلا وتصطبغ بآراء قادتها، وحالة التبعية التي يكون عليها الأتباع تؤذن بالانسحاق الروحي لقائدهم وتجعلهم يتمثلون حاله وسلوكه.

”
على الدعوة أثناء مراحلها الأولى ألا تبحث عن الكثرة، وأن تضيق من احتمال قبول من يخالف سمتها بين صفوفها، وليس هذا تضيقاً للعمل، ولا أثرة به، ولكن الشرع أعطى حق إزالة أسباب الضرر وقدمها على جلب النفع

١٩. انهيار الضَّرَار:

تكون التَّبَعَة على الدعاة الذين يُقتدى بهم أكبر؛ فهم الذين يُنظر إليهم، فإذا جاء الفساد من قبل من يُرجى منه صلاح الناس؛ فمن يصلحهم؟!

* النور الرابع والعشرون: الحرص على نجاة النفس.

يقصد به الحرص على النجاة من تبعات الإمارة في الآخرة، وأنها تستلزم سؤالاً يوم القيامة عن كل شيء، وأنها خزي وندامة؛ فمن لم يعلم من نفسه أنه يقوم بها حق القيام فليطلب لنفسه السلامة.

* النور الخامس والعشرون: تمييز الغايات الصدامية في مساجد الضرار.

فإن لكل مشربه وغايته، ولا يمنعه كونه مسجداً أن يكون قد أنشئ لحرب الإسلام؛ فيذكر الراشد أن الحال هو نفسه مع الدعوة، وأن من أمارات هؤلاء: ترك ما حلَّ بالمجتمع من فساد، والتوجه إلى الشباب الملتفين حول الدعاة، وإن من الخطر العظيم أن يصغي إليهم المخلصون.

* النور السادس والعشرون: مضاعفة الحذر من فتن آخر الزمان.

مما لا يُختلف فيه أننا أقرب للساعة من ذي قبل، وأن ذلك يستدعي حذراً وعملاً! وإن في العمل للساعة شغلاً.

٢٠. دماءٌ على المصحف:

ينبه المؤلف إلى أن الدعوة أثناء مراحلها الأولى لا تبحث عن الكثرة، وأن تضيق من احتمال قبول من يخالف سمتها بين صفوفها، وليس هذا تضيقاً للعمل، ولا أثرة به، ولكن الشرع

أعطى حق إزالة أسباب الضرر، وقدمها على جلب النفع، وليس لذي معاكسة أن يزاحم.

* النور السابع والعشرون: الاتعاظ بالتاريخ.

فقد كانت خطة اليهود زمن عثمان بن عفان رضي الله عنه تدور على محور واحد: إفساد طاعة الجنود لأمرائهم، فضخموا ما بدر منه من اجتهادات أمرها يسير حتى صارت فتنة؛ فهدموا باسم الأمر بالمعروف، وسال دم عثمان الشريف على مصحف عثمان!

* النور الثامن والعشرون: الإعراض عن الجاهلين.

فمن أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان لا يغضب لنفسه، وكذا ينبغي أن يكون الداعية.

* النور التاسع والعشرون: كبت الإشاعة.

قال الله سبحانه: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣]؛ فقد أرشدت الآية إلى علاج ما يأتي من أخبار.

* النور الثلاثون: خوف تنكر الأرض والمؤمنين للخوالف.

يشير به أن من خالف جماعة الدعوة فلن يجد إلا الوحشة، وأن عليه أن يرهب المقاطعة له؛ «ذلك أن الفقهاء أجازوا لنا ترك السلام على مقارف الذنب».

٢١. نهضة العاشر:

يذكر فيها المؤلف أن من أبي إلا القعود عن الدعوة؛ ترك إلى اختياره وإن كان صالحاً عفيفاً.

ثم يعرض قصة داعية تنكب عن الطريق، وترك العمل، وبدأ ينشر قيل وقال، فأرسل له أميره برسالة عتاب ووعظ وزجر؛ وقال له فيها:

فإنه مما أدركنا من كلام السلف أن الله تعالى إذا أراد بعبدٍ خيراً، جعل فيه ثلاث خصال: الفقه في الدين، والزهادة في الدنيا، والبصر بعيوبه.

أدعوك إلى أن ترجع بذاكرتك إن استطعت إلى أول هذا الخلاف، وسترى أن البداية كانت كلمة همس بها أحدهم في أذنك، فغلى بها صدرك. وما إخالك تستطيع نسبة شيء من الاجتهاد في أمور الدعوة مما تخالفنا فيه إلى نفسك قبل تلك الهمسة. فتحاسبنا عن صغائر لا يخلو منها مجتهد، ولو شئنا أن نذكرك بنقص بعد نقص بدر منك لأسكتناك!

فاستعد بالله من الفتن، ونق نيتك مما علق بها، وليسعك التواضع، واحرص على نجاة نفسك، والتفت إلى عيبك، وأنظر إلى صواب الدعوة إذا نبهك أحد إلى أخطائهم.

فرجع عما أحدث، وأجابه عليه برسالة قبول لما قاله، وعاد إلى طريق الدعوة.

ثمة فروق بين جيل الدعوة اليوم وجيل السلف؛ فمن قارن بينهما دون تمييز الفروق فإنه قد فاته فرق ما بين العصرين؛ وأولها: أن مربى السلف هم النبي ﷺ وأصحابه، فكل متصدٍ للتربية بعدهم ناقص، وكما أن المربي قد اختلف؛ فالمتربي كذلك، فلا يصح لوم المربي وحده

٢٢. أخيار ولا فخر:

ثمة فروق بين جيل الدعوة اليوم وجيل السلف؛ فمن قارن بينهما دون تمييز الفروق فإنه قد فاته فرق ما بين العصرين؛ وأولها: أن مربى السلف هم النبي ﷺ وأصحابه، فكل متصدٍ

للتربية بعدهم ناقص، وكما أن المربي قد اختلف؛ فالمترابي كذلك، فلا يصح لوم المربي وحده، ثم إن الناس كإبل مئة؛ فإذا ظهر من يتمثل أخلاق السلف وسلوكهم فهم قليل، كما أن المنقول عن أجيال السلف إنما هي الفضائل وحدها، ونحن نرى الصورة الفاضلة لمجموع أجيال السلف، ولا نرى عيب أفرادهم، وما هذا بطعن فيهم فهي مدفونة في حسناتهم العظيمة، ولكنها دعوة إلى الواقعية في فهم الإنسان والتاريخ، ثم إننا في أزمنة ضعف وتراجع، والنفوس تألف ما تراه وتستسيغه.

فكل ما سبق يستوجب سلوكين:

١. ألا نسرف في اتهام أنفسنا.

٢. ألا يسرف المنتقد في النقد.

٢٣. كلمة أخيرة:

يذكر فيها جملة ما ذكره في الكتاب من التحذير من الفتن وأسبابها وخطرها على الدعوة.

ويرجو أن يتأملها القراء فرادى حتى تصفو لهم ويتأمل ما فيها من آيات وأحاديث وكلام أهل العلم وأشعار، وأن يعيد قراءتها.



أذاعوا به

د. خير الله طالب

رأى عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما جمعاً من الصحب الكرام عند باب النبي صلى الله عليه وسلم، إذ اختلفوا في آية حتى علت أصواتهم، فخرج النبي صلى الله عليه وسلم مغضباً قد احمرَّ وجهه، فوعظهم وحذرهم وقال صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ الْقُرْآنَ لَمْ يَنْزَلْ يُكْذِبُ بَعْضُهُ بَعْضًا، بَلْ يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضًا، فَمَا عَرَفْتُمْ مِنْهُ فَاعْمَلُوا بِهِ، وَمَا جَهِلْتُمْ مِنْهُ فَارُدُّوهُ إِلَى عَالِمِهِ) ^(١). فهذا القرآن ﴿لَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

والناس في ردِّ ما يردُّهم من حوادث وأحداث إلى العلماء على حالين: صنف متعجل يتكلم، وآخر متأن يتعلم. فالمتعجلون ﴿إِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ﴾ [النساء: ٨٣]، إذا بلغهم خبر نشره وتحدثوا به قبل أن يتثبتوا من صحته ودوافعه، ويتحققوا من فائدة نشره وعدم ضرره، وخاصة إذا تعلق الخبر بخطأ الصالحين القائمين بالشأن العام، فإنَّ نشر أخطائهم قد ينقلهم إلى المجاهرة، فيعيق التوبة والتصحيح، ويغلق باب التواصي والنصح، ويزيد الهوة بين المصلحين، ويحزن المسلم ويضرَّ همته، ويفرح العدو ويشمته ويقوي شوكته.

وهذه الآثار تنشأ من ضعف التربية على فضيلة الصمت، والتدرُّب على مهارات التثبت والتمحيص والتدقيق، ومعرفة أن نقل كلِّ ما يسمعون من الكلام يُوقعهم في الإثم

(١) أخرجه أحمد (٦٧٠٢).

أذاعُوا بِهِ

د. خير الله طالب

والكذب، ويجرُّهم إلى الغيبة والنميمة والبهتان. ولربِّما حمل أحدهم على ذلك حُبِّ شرف الشهرة، والتشوّف إلى السِّبق، غير مباليين إن كان بباطل أو بحق.

أما أهل الفهم المتصفون بورع اللسان، فإنَّ صمتهم يسبق كلامهم، وتثبتهم يسبق نقلهم، وعقولهم تُغلق أفواههم، فما يسمعون كثير، وما يتحدثون به أقلَّ من القليل، فإذا تحدّثوا فإلى صاحب الشأن والمسؤولية، ممن عليه واجب العمل والتصحيح أو الاحتساب والنصح.

لكنَّ ردَّ الأمور إلى العلماء يصطدم بمشكلة التواصل مع هؤلاء العلماء، فكثير منهم غائب أو مغيب؛ بسبب الطغيان السياسي في البلدان التي يعيشون فيها، الذي يتسلَّط عليهم بالحبس والتضييق والقتل والتهديد والطرْد، ومن هاجر منهم وجد نفسه غريبًا مجردًا من أسباب القوة والحركة مقيدًا بظروف معيشية قاسية.

تبقى بعد ذلك الندرة القادرة من العلماء أهل خشية الله القوامين بأمره عز وجل، أولئك يجد الواحد منهم نفسه فريدًا أمام طوفان النوازل وسيول المسائل، التي تفتقر إلى جيوش الباحثين والدارسين المساعدين للعالم على الاستنباط، وخبراء الإدارة القادرين على إدارة عملية الاستنباط وإعداد دراسات الفتوى، وكلاهما قد يتوقف على وفرة المال وحسن تدبيره.

أذاعُوا بِهِ

د. خير الله طالب

فروض كفايية واجبة على القادرين، من عالم وخبير
وغني ومسؤول وإداري وقيادي، ولا يرتفع إثمها إلا
بوجودها الصحيح، حتى يتحقق مراد ربنا الجليل عز
وجل في الآية ذاتها: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ
لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ
لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾ فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا
نَفْسَكَ ﴿النساء: ٨٣-٨٤﴾.

وفي طريق إقامة هذا الواجب عقبات يسهل اقتحامها
لمن صدق في طلب الحق، وأخلص لخالقه، واستعان
بمولاة.

« أولها: التعصب الحزبي الذي يجعل أولويات الأصحاب
مقدمة على التحام المسلمين في حربٍ ضروسٍ مفتوحة.

« وثانيها: التفرق الإداري الذي يشتت الطاقة العلمية
للأمة في مصالح جزئية بأثواب مؤسسية.

« وثالثها: التصدر الفردي لغير المؤهلين الذين أبرز
بعضهم الإعلام، وربما ساند آخرين منهم مال
الطغيان؛ يزاحم بهم الراسخين في العلم.



أذاعُوا بِهِ

د. خير الله طالب

نَفْرَةٌ علمائية جماعية، مسنودةٌ بقياداتٍ إدارية، مدعومةٌ بكفايةٍ مالية، متبناةٌ شعبيًا، هي غايةٌ كلِّ مصلح، ومخافةٌ كلِّ مفسد، تقع مسؤوليتها على كلِّ فردٍ بحسب إدراكه واستطاعته وموقعه، بالحض والتحفيز والمساندة والدعاء، وإتاحة الوقت والتصديق بالخبرة، وترك ما لا يحسنه لأهله.

لا خروج من حالة التصارع، ولا مكان في مرحلة التدافع، إلا بصمتٍ إيجابي يأخذ بالجهود بعيدًا عن ميادين الاستنزاف إلى محاريب الخشية؛ لتصفو العقول فتعرف طريق العمل، فإنَّ هذه الأمة لا تُقاد إلا بوحي السماء الذي توارثه علماؤها وورثة الأنبياء.





ترحب مجلة رَوَاء بمقالاتكم العلمية والفكرية
ضمن المحاور الأساسية للمجلة



ويشترط ألا يزيد حجم المادة المرسله عن ٣٠٠٠ كلمة، وأن تكون المادة مكتوبة أصالة للمجلة
وغير منشورة من قبل، وأن تراعى فيها سياسات النشر في المجلة

كما ترحب المجلة بخواطركم القصيرة ضمن زاوية (بأقلام القراء)

ترسل المقالات والمواد إلى البريد الإلكتروني:
rawaa@islamicsham.org

رَوَا



rawaamagazine

www.rawaamagazine.com